د . محمد شعلان

الطب النفسى والسياسة

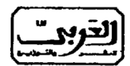
فى الناس و النفس و الجسد



في الناس والنفس والجسد

الطب النفسي والسياسة

د. محمد شعلان



٦٠ شارع القصر العيني — أمام روز اليوسف — القاهرة
تليفون : ٢٧٥٦٦ — ٢٧٤٨٢

إهـــداء

- الى صديقى الذى رأى يوما معى رؤية الحق
  فلم تفارقه

- رغم الغشاوة التى أضـــفوها عليه ليطمسوها
  وسايرهم حتى كادوا يطمئنوا
  انه لن يبهرهم بضوئها ثانية
  الى أن فاق شوقهم لها خوفهم منها
  فاستدعوه
  لينير الطريق

- دون أن يبهر النور أعينهم
  فتحمل العبء

- وسار وحده يضىء الظلام
  ويرشد العميان

الطب النفسى والسياسة

تمهيـد

المعالج النفسى يستقبل الفـرد الذى عجز عن التعـامل مع واقعـه بانسجام كافى فاحتك به أو تصادم معـه ، وذلك من موقع اصراره على التعامل مع هـذا الواقع بنمط لا يلائمه ، ولعلـه كان يلائم واقع أقل أو واقع لم يأت بعد · أى بينما يوجد فى الحاضر نجده يتمسك بالماضى أو يحلم بالمستقبل · والحـاضر هو الموجود خارجه وداخله على السـواء ، بينما الماضى ذكريات بداخلـه أساسـا والمستقبل بدوره آمال نابعـة من داخله أسـاسا أى أن المريض هـو الذى يحيـا فى عالمه الداخلى بذكرياته وآماله على حسـاب وجوده الخارجى كواقع حاضر · ونظرا لأن الواقع هو ما يفـرض وجـوده الآن ، فان اصطدام الفـرد بالواقع ليس له الا نتيجة واحـدة وهو أن يشعر الفـرد أنه مقهـور ازاء واقع يرغب فى تغييره سـواء الى نمط سـابق أو نمط آتى · ان هذا الشعور بالعجز هـو الذى يجعـل الفرد مريضـا بمعنى أنه يتـألم ويعانى ويطلب المعونة للتغلب على ألمه ·

والمعالج النفسى يهدف الى تحقيق ما يطلبه المريض منـه ، فالمعالج يمارس دورا اجتماعيا يتقاضى عنه أجـرا ماديا ومعنـويا فى مقـابل قدرته على تلبية احتيـاج المرضى · ولذلك فهـو يسعى الى معـاونة المريض على التغلب على الألم · الا أنه اذا نجح تماما فى تحقيق ذلك ، فالنجاح المطلق هنـا يتطلب القضاء على الاحاسيس

برمتها سواء كانت بالألم أو اللذة · وذلك لاستحالة وجود اللذة المطلقة كنتيجة للقضاء على الألم · فاللذة ليست هى بلذة الا بفضل كونها حالة نفى للألم ونهاية له · واذا لم يوجد الألم أصلا لا يكون للذة وجود ·

وهكذا فان المعالج النفسى يجد نفسه بعد نقطة ما فى السعى الى التغلب على الألم يكتشف استحالة ذلك · بل ان المريض نفسه يتيقن ذلك بعد أول خطوة نجاح فى التخفيف من حدة الألم الذى أتى به الى العلاج · ويكتشف أن بعد كل نجاح فى الحصول على اللذة تتولد رغبة جديدة فى لذة جديدة وأن انعدام تحقيق الرغبة الجديدة ليس الا صورة جديدة للألم ·

ويلتقى الاثنين فى أن القضاء على الألم لا يتأتى الا من قبوله كواقع حتمى · وأن خير المراد أن يصلا سويا الى نقطة الاستغناء عن الالتقاء وراء قناع أدوار المعالج والمريض ، ومتى يتم الالقاء الانسانى بينهما من موقع ندية متبادلة ومشاركة حقيقية للألم ، ينتهى العلاج ويستمر كل طرف فى ممارسة وجوده متحملا مواجهة واقع حتمية الألم · فالانسان بحكم وجوده حيا لا مفر له من أن يستمر بدرجة ما فى تناقض مع واقعه ·

ان ذاكرته لهى جزء من وجوده وكذلك آماله ورغباته ، لا يستطيع أن يكون انسانا حقيقيا الا اذا تقبل ماضيه ومستقبله على السواء بالاضافة الى حاضره · وليس أمامه الا أن يسعى الى تخفيض حدة التناقض بين الأطراف دون الغائها · فانه حى يتطور وينمو بفضل هذا التناقض بين ماضيه ومستقبله وحاضره ·

ان هدف الصحة النفسية الذى يسعى اليه المعالج لهو اذا السعى المستمر الى تحقيق القــدر الأكبر من التناغم بين ما هو بالطبيعة متناقض • أى أن يستطيع الفــرد أن يوفق بين ماضيه وحاضره ومستقبله مع قبوله التناقض بينهم • وهــو يســاوى أيضــا السعى الى التوفيق بين عالمه الداخلى (الماضى والمستقبل) من جانب وعالمه الخــارجى (الحــاضر) وأن يوازن فى درجة وجوده فيهما •

واذا فالمريض هو الــذى يأتى الى المعالج النفسى لغلبة وجــوده الداخلى على وجوده الخــارجى ، أو ماضيه ومستقبله على حاضره من جانب آخر ، فان العــلاج فى هــذه الحالات هــو معــاونة المريض على اعادة التوازن بتغليب الخارج والحاضــر ، أى توجيه انتباه المريض خارج ذاته • فينتقل من التعامل مع الداخل الى التعامل مع الخــارج ، ومن الخيال الى الواقع ومن الماضى والمســتقبل الى الحاضر • وهــذا يعنى باختصار أن ينجح فى ممارسة وجــوده على المستوى الاجتماعى (عــلاقات التفاعــل المختلفة مع الافراد الآخرين والجماعات) والســياسى (علاقات السلطة بين الافراد) والاقتصــادى (علاقات الملكية والسيطرة على المادة) وهكذا •

واذا اعتبرنا أن العمــل السياسى هو أحــد المســتويات الهامة لممارســة الوجود الخارجى فاننا نستطيع أن نقول أن العلاج النفسى يهدف الى تحويل الفــرد من كيان يتصارع مع ذاته وخياله وذكريات ماضيه وآمال مســتقبله الى كيان يتصارع مع واقعه • وذلك بتحويله من فرد عديم الفــاعلية السياسية الى فرد سياسى •

من جانب رجل السياسة فلعلنا نشاهد نفس الظاهرة معكوسة ٠ رجـل السياسة هو الذى ينجح فى العمـــل على تنظيم علاقات السلطة بين أفــراد المجتمع وكياناته المختلفة ، بهدف تحقيق البقاء لهـذا المجتمع كقــوة ازاء المجتمعات الأخرى ٠ وهو ينجح فى ذلك بأن يحقق للمجتمع ما يطلبه منــه مقابل تفويض المجتمع له بنصيب أكبر من السلطة ٠ فهــو كفرد استطاع أن يحقق قدرا من الاشباع الذاتى يجعله يوجه انتبــاهه الى الخارج فيكرس اهتمامه للتوفيق بين احتياجات الآخرين ٠

وهو بقــدر ما يستطيع أن يحقق ذلك بمفرده يفــوض من سلطته بدوره ، لآخرين بهدف معاونته فى تنظيم العلاقات بين الافراد فى المجتمع وبين الكيانات الاجتماعية المختلفة ٠

ولكى يحقق له أعوانه ممن يفوضهم فى ذلك مطلبه فى النجاح فى التوفيق بين تلك الاحتياجات المتناقضة فان ذلك يتطلب منهم أن يتسموا مثله بقدر من الاشــباع الذاتى الذى يسمح لهم بتكريس اهتمامهم للآخرين ٠

ان هـــذا الاشــباع الذاتى الذى يسمح للفــرد أن يحيــا فى الواقع ويتعــامل معه دون جذب مفرط للخيــال والداخل والماضى والمستقبل ما هو الا الصحة النفسية التى أشرنا اليها ٠

والذى يحدث فى الواقع أن رجل السياسة قد ينجح بدرجة ما ولمدة ما فى تحقيق ما يفوض له من قبل المجتمع ، ولكن هنــاك حــدود بعدها يجد نفســه قاصرا عن تحقيق ذلك ، اما لقصــور فيــه جعل احتياجاته الذاتية تتغلب على قدرته على تلبية احتياجات

الآخرين ، أو لشـدة احتياج الآخـرين بما يفوق امكانية اشباعهم ·
فى كلتا الحالتين نجد رجـل السياسة وقد بدأ من موقع صـحيح
(نفسيا) يواجه التعـارض بين الداخل والخـارج أو بين الذات
والموضوع · أى أنه يتحول الى ما يوازى حالة المريض النفسى الذى
يتألم ويطلب المعونة أو يحتاجها ·

والمعونة التى يحتـاجها أو يطلبهـا هنـا تهـدف الى اعـادة
التوازن بأن يعيـد الالتفات الى الداخـل ليشبعه مما يسمح له
بتوجيه انتبـاهه الى الاحتياجات الموضوعية للغير · ولعـل أول
خطوة هى المواجهة والاعتراف بهذه الاحتياجات الذاتية بدلا من
تركها تتحقق من خـلال ما يبدو على السطح أنه عمل من أجـل
الآخرين أى عمل سياسى ·

رجل السياسة يبـدأ اذا من موقع الاهتمام المفرط بالخـارج
وينتهى يجذب نحو الداخل والصحة النفسية حسب المفهوم الذى
أشرنا اليه لهى توازن بين الداخل والخارج ·

ولذلك فان رجل السـياسة الناجح هو الذى يستطيع أن
يحقق هذا التوازن بين الداخل والخارج ويميز بين ما هو اهتمـام
حقيقى بالخارج وما هو مجرد تغليف لاحتياجات داخلية ·

واذا ما انتقلنا خطوة فى هذا المفهوم بأن نوازى بين ذكريات
الماضى وآمال المستقبل فاننا سـوف نجد الظاهرة تتكرر على المستوى
السياسى بما يعرف بالموقف اليمينى والذى يمثل التمسـك بأنماط
سياسية سابقة يسعى الداعين اليها لتحقيقها أو ابقائها كبـديل
للواقع والحاضر · بينما الموقف اليسارى يعبر عن أمل فى تحقيق

نمط سياسى يعتقد الداعين له أنه يمثل النمط المستقبلى ويسعوا الى تحقيقه كبديل للحاضر · ورجل السياسة الناجح هو بحكم التعريف من يمثل واقع السلطة فيقف بالضرورة بين اليمين واليسار بل يجد نفسه فى تناقض معهما · كلاهما يمثل الحاجة الى التغيير ورفض الواقع ، ولكن كلاهما بالتعريف لا يقومان بعمل سياسى فى الحاضر اى لا يملكان السلطة السياسية حاليا ولكن يعارضانها اما ندما على فقدانها أو عشما فى الحصول عليها ·

ان رجل السياسة بحكم وجوده فى واقع السلطة لابد وأن يجد نفسه فى تعارض مع القوى المعارضة بجناحيها اليمينى واليسارى · وهذا التعارض قد يؤدى الى صراع والى ألم ، والألم بحكم وجوده يتطلب القضاء عليه · وقد يبدو لاى طرف فى الصراع لاول وهلة أن المخرج من الألم هو القضاء على الطرف الآخر من أطراف الصراع · ولكنه اذا نجح فى ذلك يصبح مثله مثل المعالج النفسى الذى يسعى الى القضاء المطلق على الألم فينتهى بالغاء الاحساس وبالتالى الغاء الحياة برمتها · اذا حقق ذلك فان ما يفعله هو القضاء على المجتمع ككيان حى متجدد ومتطور · ولكن المجتمع بطبيعته حى ومتحرك وبالتالى فلا يوجد بديل أن ينفجر الصراع فيما يبدو بدون سابق انذار وينتهى مرة أخرى بقضاء ظاهرى لطرف على آخر وهو عادة قضاء السلطة على المعارضة · واذا صادف أن ينجح الطرف المعارض فى القضاء على السلطة ، وهو احتمال يحدث بين حين وآخر تاريخيا ، فان التغيير الناتج عن مثل هذا التغيير يسمى عادة ثورة ، ويتصور المجتمع أن بانتصار الثورة فان الصراع قد انتهى ·

ولكن انعدام الوعى بهذه القاعدة يعيدنا مرة أخرى الى نفس الدائرة ·

ولذلك فان رجل السياسة الناجح مثله مثل المعالج النفسى الناجح هو الذى يستطيع أن يوجد ذلك التوازن بين الداخل والخارج وبين الواقع والخيال وبين السلطة والمعارضة · وهو الذى يستطيع أن يلتقى مع الطرف المعارض له من موقع ندى يشاركه معه فى السلطة فيحمله معه المسئولية فلا يصبح هو وحده من يتهم بالعجز أزاء احتياجات المجتمع · ولعله هو أيضا الاقدر من موقع وجوده فى السلطة على أخذ المبادرة ليقابل معارضيه حتى فى عقر دراهم فيغزوهم بتقبله لهم رغم نصرته على غزوهم من موقع القوة · وهو بذلك يكسر الحلقة المفرغة من النفى المتبادل بين السلطة والمعارضة ·

انه بهذا يلتقى مع هدف المعالج النفسى من نقطة بداية متناقضة بأن ينظر فى داخله ويقبل نفى المعارضة له · لقد بدأ بانتباهه للخارج ولزم أن يعوض ذلك بتحويل انتباهه الى الداخل فيحقق بذلك التوازن المطلوب للصحة ·

باختصار فان هناك لقاء بين العمل السياسى والعمل العلاجى من نقطتى بداية مختلفين · فالعمل العلاجى يبدأ بالفرد لينتهى بالجماعة والعمل السياسى يبدأ بالجماعة لينتهى بالفرد · فكلاهما يهدف الى ايجاد الانسان الصحيح والمتكامل ·

الفرد يصح نفسيا حينما ينتقل بكينونته من الحالة الفردية الى الحالة الجماعية ، والجماعة (فى العمل السياسى) تصح حينما تنعكس هذه الصحة على أفرادها ·

المعالج الفردى يريد أن ينقل وعى الفرد الى الجماعة ورجل السياسة يريد أن يجعل الجماعة تعى الفرد · فلا مفر لهما من التعاون من أجل تحقيق الهدف المشترك وهو الصحة والتوازن ·

فى هذه المحاولة لانشاء القنوات بين الطب النفسى والسياسة تتأكد هوية الطبيب النفسى كمواطن سياسى تحقيقا لمبدأ أن السياسة كممارسة ليست حكرا على المتخصص انما هى حق بل واجب على كل انسان كمواطن · وعلى هذا فهو ليس حديث متخصص فى السياسة بقدر ما هو حديث مواطن مارس تخصصه ورأى من خلاله الانسان كمواطن سياسى ·

كتبت هذه المقالات على فترات عديدة عبر عدة سنوات كما يبدو من محتوياتها ومع ذلك ربطها خط سير موحد وواضح حين يبدو غامضا · وهذا الخط يتلخص فى الآتى :

الحقيقة واحدة ولكن كل منا يراها من زاوية مختلفة ، وأفضل سبيل اليها أن يتجاوز كل منا رؤيته وينظر من وجهة نظر الآخر · فالآخر حتى ولو كان مخطئا فى نظرنا فهو ذاته جزء من هذا الواقع الذى نسعى للتعرف على حقيقته · واذا ما استطعنا أن نرى الحقيقة من أكثر من زاوية بأن نتقبل الآخر ففى ذلك أفضل تقريب لهذه الحقيقة ·

ورؤية كل منا من زاويته للحقيقة لهى انعكاس الواقع الذاتى لكل منا والذى يشمل جسده ونفسه وناسه الذين يحيطون به · وبالقدر الذى يشترك بخواصه الذاتية مع آخرين فهو يعكس أيضا واقعا جماعيا والذى يتخذ الطابع السياسى ·

وما ينطبـق على ضرورة اللقـــاء بين الرؤية الذاتية ورؤية الآخرين ينطبق على البعد السياسى فهناك ضرورة لتقبل الآخر على المستوى السياسى داخليا وخارجيا ٠

وعلى هذا فقد صنفت المقالات فى أبواب تدور حول الداخـل السياسى فى فكرة ضرورة وجود واعى للمعارضة بدلا من وجودها خارج وعينا وما يترتب على ضرورة الحوار معها بدلا من النفى المتبادل٠ ثم حول الخارج السياسى فى فكرة ضرورة قبول الحوار مع المجتمعات الأخـرى التى قد تختلف فى رؤيتها عنا ٠ ثم حـول الماضى فى فكرة ضرورة التوحد مع ماضينا بدلا من الاغتراب عنه ٠ وأخيرا حولنا فى الفكرة العامة لضرورة قبول الآخر فى كل ما يحيط بنا من مظاهر الوجود ٠

ان الانسان فى بدء وعيه لا يعى الا الوعى بلا حدود ثم يبدأ فى انشاء الحدود وهى عملية تتطلب نفى لما هو خارج هذه الحدود ريثما تتحدد الذات ، وبعد تأكيد وعيه بذاته المحدودة يســـعى مرة أخـرى الى تجـاوزه لذاته وذلك بأن يعى الآخـــر ، فيتراجع بوعى وارادة عن نفيه المطلق للآخر ويزداد اعترافا به وتوحدا معه ٠ ان قبول الآخر هى قمة نضج الوعى الانسانى مع أهمية تأكيد أن وعى الذات بالآخر لابد وأن يســـبقه الوعى بالذات ، وأنه لكى يتجاوز الانسان ذاته لابد وأن يؤكدها أصلا ٠ ان قبـول الآخر ليس قضية أخلاق أو مثاليات بقدر ما هو تعبير عن ضرورة وحتمية لتطور الوعى الانسانى ٠ انه مؤشر النضج وسير فى طريق مضطرد التقدم ٠

حينما سئل أحد الاصدقاء عن موقف الكاتب السياسى قال بعد تفكير برهة أنه « يسمينى » وكأنه بهذه الكلمة جمع بين كونه لا يمينى و لايسارى أو يمينى ويسارى معا كما أنه كالياسمين لا يعادى أحدا وبالتالى يقف بعيدا عن الاطراف المتصارعة · وكذلك وصف طلاب علم النفس بآداب جامعة عين شمس لذات المنهج كما ظهر فى تدريس الطب النفسى أنه مدرسة « عندك حق » وذلك بناء على قصة جحا الشهيرة (حينما جاءه شاك بشكوى فقال له « عندك حق » فلما جاءه خصمة قال أيضا : «عندك حق » · فلما علق طرف ثالث أنه بذلك يناقض نفسه فقال له هو أيضا : « عندك حق » ·) فان النظرة الشمولية تجعل الانسان يتجاوز ما يبدو مطلق فى اطار النسبية ويرى كيف أن كل شىء جائز على حسب المنظور الذى يشاهد من خلاله · فلا شك أن اليمين له وجهة نظرد واليسار له وجهة نظره والوسط أيضا بالضرورة له وجهة نظره · وطالما كل غارق فى وجهة نظره فهو يرى وجهة النظر المخالفة على أنها خاطئة بينما ينسى أن صاحب وجهة النظر المخالفة يعتقد مثله أن هناك طرف على صواب وطرف على خطأ مع الاختلاف حول من منهم الطرف الذى على حق ، اذ يعتقد أنه هو الذى على حق بينما الآخر مخطىء · وطالما نحن منغلقين داخل تلك النظرة أن هناك طرف مصيب وطرف مخطىء فبالتالى نحن أسيرين لحتمية الصراع معه · والصراع لاينتهى بقضاء طرف على الآخر اذ أن وجود طرف مصيب يستلزم وجود الطرف المخطىء

المناقض له فالقضاء عليه اذا يعنى حرمان الاول من هذا النقيض الذى يجعله يتميز عنه بأنه مصيب · وهكذا فان القضاء على نقيض الشىء يعنى القضاء على الشىء ذاته ·

المخرج يأتى حينما أستطيع كطرف أن أتجاوز الصراع وأقبل وجوده وكذلك اقبل وجودى كطرف فيه · فأنا قد أكون على يمينك أو يسارك أو بين هذا وذاك وبالتالى متناقض معك · ولكن وجودى فى تناقض معك لا يعنى اننى لا بد أن أقضى عليك · فلنتصارع اذا فى سلام · وليكن هناك اليمين واليسار والوسط وليتقبل كل منا الآخرين كأطراف متناقضة ·

اليسمينية اذا هى موقف فكرى يعبر عن هذه القدرة على تجاوز التناقضات بما فى ذلك قبول الوجود بداخلها · أى أن أكون معك ومعى فى ذات الوقت · فوجودى معك وأنت ضدى لا يعنى خضوعى لك وعدم خضوعى لك يعنى وجودى معى وبالتالى ضدك · فلأنى معى فأنا ضدك ، ولأنى معك فأنا ضدى ، ولأنى معى فأنا ضدى ولأنى معك فأنا ضدك !

من هذا المنطلق أستطيع أن أبرر كيف يكون الكاتب مدافعا عن الجماعات الاسلامية والجماعات اليسارية والحكومة فى نفس الوقت · ولكن ذلك الموقف المحايد والمتجاوز فكريا لا يعنى عدم وجود موقف فعل ملتزم · كل ما هنالك أن موقف الفعل هو موقف ملموس · ويقاس فى الواقع اليومى وليس بالالفاظ أو النيات أو العقائد النظرية · وبالتالى فان الكاتب الشريف يجب الا يقول الا ما يفعل ، ولا يفعل الا ما يقول ، فتكون أفعاله هى مواقفه · ورغم أن الكلمة فى حد ذاتها قد تكون فعل ، فهناك فرق بين الفعل بالكلمة

والكلمة كبديل للفعل ٠ فان أفصح كلمة هي ما تتم بفعل وأوقع فعل هو ما يعبر عن كلمة ٠ وكما تقول الحكمة الصينية : من يقول لا يفعل ومن يفعل لا يقول ٠

أما عن الدين والسياسة وهي من الموضوعات الحساسة التي نخاف جميعا من التطرق اليها خشية اتهام بالنفاق من جانب وبالانحراف أو الكفر من جانب آخر ، فهناك استحالة في تجنبها ٠ فكل فعل أو كلمة أو قول لهو في نهاية الامر تعبير عن موقف ازاء الوجود في الأزل عبر الزمان والمكان (أي شئون الآخرة وهي أحد جوانب العقيدة الدينية) وموقف ازاء الوجود في حدود الزمان والمكان (أي في الدنيا وهي شئون السياسة) ٠ وعلى اية حال فان الدين الاسلامي أكثر من غيره لهو شامل لشئون الآخرة والدنيا على السواء ، وبالتالي فان الموقف السياسي لهو في هذه الحالة مرادف للموقف الديني ٠ ولذلك فان أي رأي أو موقف لهو بالضرورة ديني ٠ ومن هذا المنطلق فان كل مواطن لا محالة يعبر بالفعل أو القول عن موقف ديني وبالتالي سياسي ٠ وهذا الموقف اما أن يكون معلن وصريح أو أن يكون خافي ومقنع ٠ وما دام الامر كذلك فلا مانع من أن نقولها صراحة أننا لا نخشى التطرق لتلك المواضيع رغم كل ما يترتب على ذلك من مخاطر الاتهام بالانحراف يمينا كان أو يسار أو جحيما كان أو رياض ٠

ان الدين الاسلامي بل والاديان عامة لا يمكن أن تكون في معزل عن شئون الدنيا ٠ فالدين دنيا وآخرة ٠ وشئون الدنيا مال وبنون وما يتفرع من ذلك من صراعات حول السلطة أو المال ٠ وشئون الآخرة هي القدرة على تجاوز تلك الصراعات ٠ فالدين اذا

فى جوهره هو هذه الامور الدنيوية والروحيـة معا وهـو الصراع والســلام معا ٠

فلا حرج اذا فى أن بتحدث فى الدين كموقف وجودى (وليس كعلم أو فقه المســمى بالثيولوجيا Theology) مثلما لا يوجـد ما يمنع من الحديث فى الســياسة كموقف ايضـا ٠ فاننا بذلك كمواطنيين من غير علماء السياسة أو علماء الدين نؤكد أنه من حق كل مواطن بل أنه لواقع كل مواطن ، أن يكون له موقفا سياسيا ودينيا على السواء ٠ أو اذا اعتبرنا الدين هو الدنيا والآخرة فهو موقف من الدنيا ومن الآخرة ٠ اذ أن كل مواطن مسئول مسئولية مباشرة عن ما يعتنقه من عقائد وما يتخذه من مواقف ٠ ولا يوجد من يملك القدرة على املاء تلك المواقف على آخر ٠ وكثيرا ما نظن أن هناك موقف يمليه قائد على جماعة ولكننا ننسى أن القائد أصبح قائدا بفضل قدرته على التعبير عن موقف جماعة ٠ والجماعة تتكون من أفرادها فى تفاعلهم مع بعضهم ومع الجماعات الاخرى والواقع التاريخى التى تتواجد فيها ٠ ومن هنـا فان الفرد فى النهـاية حر فى اتخاذ موقف ومسئول تماما عنه ٠ انه لمثل هذا القارىء نوجه هذا الكلام ، ساعين لانشاء حوار معه بهدف أن يوضح كل منا موقفه دون أن يملى أحدنا موقفه على الآخر ، متقبلين أن يكون فى اختلافنا الحتمى فى الموقف والرأى بذور الحـوار والوفاق واللقاء ، وفى ذلك الحـوار والوفاق واللقـاء امكانية الاختـلاف ، وبين هـذا وذاك يثرى كل منا الآخـر ٠

اسلام الازهر يجذب الغالبية المتوسطة والتى تمثل الوضع القائم · والجماعات الاسلامية والتى يشار اليها بالمتطرفة تجذب مقابل ذلك المعارضة · والمعارضة شقان : أحدهما معلن أو ظاهر وهو أقلية والآخر خفى ومتفشى فى الاغلبية · والظاهر هو الذى يعلن الموقف المعارض ويتمثل فى القيادات لهذه الجماعات ·

أما الخافى والكامن فهو الذى يوجد فيمن لا يعلنون موقفا معارضا والا خطر من ذلك أن يوجد متخفيا فى هؤلاء الذين يعلنون موقفا مؤيدا ، بل فى الأغلب قد يخفى عليهم · هؤلاء هم المعارضون وهم لا يعلمون ·

بما أن الازهر يمثل الواقع وما به من أوضاع قائمة وبما أن الواقع بحكم طبيعته فى حالة صيرورة وتغير مستمرة ، فمن المحتم أن يعكس الازهر هذا الوضع المتغير بدوره · والخيار فى هذه الحالة هو بين أن يتغير بوعى وارادة أو أن يتغير رغما عنه بلا وعى أو ارادة · ولعل مؤشرات التغيير تأتى من التيارات المعارضة لما هو قائم الا وهى تلك الجماعات الاسلامية « المتطرفة » وهذه الاشارة المتطرف بين قوسين مقصود بها أنه طالما نحن نستمر فى الغاء ما تشير اليه تلك الظاهرة والتى توجد فى الواقع وتمثل وجها من أوجهه ، وذلك بتجاهل أهميتها والغاء وجودها بوصفه بالتطرف ، فاننا نرتكب خطأ فى حق أنفسنا · وذلك باننا نستمر فى التعامى عن حتمية التغيير ، وأننا اذ الم نتغير بوعى وارادة فاننا سوف

تتغير رغمـا عنا بلا وعى أو ارادة • وكذلك بأننـا سـوف نفتقد المؤشرات التى تنير لنا الطريق عن احتمالات اتجاه التغيير •

ان الجماعات الاسـلامية تبدوا كالاخطبوط بلا رأس • وطالما ظننا أننا بالقبض على قيادة أو جماعة منها وباداناتها والحكم عليها بحبس أو اعدام فاننا قد قضينا على الظاهرة ، وكأن الظاهرة هى ليست الا نتاج فعل بعض الافراد المنحرفين • ولكن استمرار الظاهرة لا محالة يفرض علينا أن نرى أن ما فعلناه لم يعدو أن يكون أننا قدمنا كبش فداء أملا فى ابعاد المسئولية عن دائرتنا المباشرة • فاننا بذلك نسعى الى تأكيد أنه ليس هناك ابدع مما هو كائن ، وان أى اعتراض عليه لهـو فى الحقيقة مجرد انحراف ولا يمثـل اعتراض موضوعى أو بديل ذو أهميـة ، الامر الذى يبرر لنا الاسـتمرار فى الحلول السطحية والمؤقتة للظاهرة متغاضيين عن الحاجة الى تغيير أنفسنا ومكتفين بتقديم فدية بين حين وآخر • وكأننا نطمئن أنفسنا والناس من جانب ونخيف كل من تسول له نفسه أن يعارض مرة أخرى من جانب آخـر •

وقد آن لنا أن نواجه حقيقة الظاهرة وهى أنها تعبير عن تلك الحقيقة الازلية أن كل شىء زائل حتى هذه الحقيقة ذاتها فالواقع الدنيوى دائم وهو يزول بأن ينمو البديل له فى تعارضه معه حتى يحل محله • والاختيـار الذى أمامنا هـو أن نعى تلك الحقيقة أولا نعيها • فاذا وعيناها أتيح لنا اختيار جديد بفضل هذا الوعى وهو بين أن نتمشى مع التغيير أو نقـاومه • وذلك نبعا من الحقيقـة أن التغيير بواسطة التفاعل بين الميل اليه ومعارضته • والاجابة تفرض نفسها م نواقع الدوافع التى تجعل كل منا يأخذ موقعا من التغيير : معه أو ضده •

فاذا نظرنا الى واقع الاتجاهات الدينية الاسلامية مرة أخرى من منظور وجود نظرتى الازهر التى تمثل الواقع السائد من جانب الجماعات الاسلامية التى تمثل نقيض الواقع ، وكذلك ما تمثله تلك الاتجاهات من ظروف تاريخية بأبعادها المختلفة ، فسوف نجد بعض الارتباطات :

مثلا فيما يختص بالتطورات التاريخية الحديثة فسوف نجد أن اسلام الازهر مر بفترة تضاؤل أبان الحقبة الناصرية مثله مثل أكثر المؤسسات التى يمكن أن تشارك فى صنع الرأى أو القرار ولا تخضع تماما له كالاحزاب والبرلمان والقضاء والمؤسسات الاقتصادية الخاصة • فان تلك الحقبه كانت تتطلب تركيز السلطة وتوحيدها فى مواجهة الاعداء الخارجيين • ولم يكن هناك مجال لان يكون لتلك المؤسسات وزن يؤدى الى تفكك الصف الداخلى • الا أن هذه الحقبة قد جاوزت امكانياتها ولم يتم بواسطتها تحقيق ما كان موعود به من حرية أو اشتراكية أو وحدة • وكان تبعها حقبه تعود فيها المؤسسات لتلعب دورها مقابل أن يكون لها كيان ودرجة من الاستقلال • ومن هنا أتت الحقبة الساداتية التى تلت الحقبة الناصرية وتبلورت فى ١٥ مايو ١٩٧١ م •

وفعلا حققت الحريات التى اكتسبتها تلك المؤسسات بعض المكاسب والتى وصلت ذروتها فى حرب أكتوبر وما تلاها من اتجاه نحو السلام وما يتبعه من رخاء اقتصادى منتظر • الا أن المؤسسات التى طالما حرمت من الوجود ثم ذاقته لم تعد تكف عن طلب المزيد • فزاد نشاط القطاع الخاص وما صاحبه من ثراء مفرط وغير منظم يقابله بالضرورة فقر نسبى للغالبية • وزادت الاحزاب المعارضة معارضة وزادت الجماعات الدينية المختلفة تطرفا وهكذا •

وبما أن الطلب زاد عن العرض ولم يعد فى مقدور المجتمع أن يوفر احتياجات كل طالب سواء كانت مادية أو معنوية ، فكان لابد من وضع حد لهذا التيار والا أدت زيادة المطالبة الى حالة من الفوضى • وهنا تفسر الاجراءات التى تلت أحداث ١٨ يناير ، والتى بدت وكأنها رجوع عن خط ١٥ مايو •

ولذلك فقد تحتم على تلك المؤسسات أن تتنازل عن استقلالها لصالح المجموعة الكبرى والا وجدت نفسها فى تناقض معها • واذا أخذنا الازهر كمثال فقد كان على الازهر أن يعمل لصالح المجتمع الاكبر أو أن يتناطح مع الواقع • ومن هنا نشأ الانسجام بين الازهر والدولة والتى كانت تمثل بالضرورة القوى الاجتماعية السائدة أو الواقع القائم • الا أن هذا الانسجام ذاته هو الذى أدى الى اغتراب القوى المعارضة لتلك الاوضاع القائمة وانتحائها جانبا عن الازهر أيضا ، ولما كان الشعب المصرى شديد التمسك بالدين وبالتقاليد والتراث فانه لم يجد اطارا خير من الجماعات الاسلامية ليغلف به معارضته • فالاشتراكية ما زالت ترتبط فى أذهانه بالحقيقة الناصرية والمعسكر الاشتراكى والاتحاد السوفيتى وكذلك بالماركسية والالحاد وهى كلها تمثل واقعا مضى وحل محله واقع جديد ما زال فى دور التجربة ، وعلى هذا فلقد أصبح الاسلام يمثل وعاءا للمعارضة الجديدة والتى لا تعتمد على العودة الى نمط سابق ، وان كان يبحث فى الماضى القديم (فجر الاسلام) عن مبادىء عامة يستطيع بواسطتها معارضة ما هو قائم • وبما أن الازهر لم يستطيع أن يستوعب تلك المعارضة ولكنه تركها تتفاقم خارجه فى مناهضتها

للواقع القائم ، فان الازهر بالتالى سوف يفقد وزنه كحليف للدولة مثله مثل حزب مصر العربى الاشتراكى الذى لم يستطيع امتصاص المعارضة واستيعابها (*) .

أما المصدر الثانى لقوة الازهر وهو أنه كان يمثل الامل فى جمع شمل الكلمة العربية وبالذات من خلال السعودية وما ينتج عن ذلك من دعم اقتصادى . ففى هذه الحقبة العربية كانت السعودية موضع غزل من قبل الدولة الى أن جاءت تطورات احتمالات السلام من كامب ديفيد . اذ بعد هذا التفاوض وجدت الدول العربية عذرا أخيرا لان تكف عن معاونة مصر . فقد كانت معونتها السابقة لها معونة اضطرارية يحكمها أن مصر هى التى تملك القوة العسكرية لوضع حد لأطماع اسرائيل فى الدول العربية فى ذات الوقت الذى يكون فى انشغال الجيش المصرى والاسرائيلى امتصاص لقوتهما وبالتالى عجزهما عن السيطرة على المنطقة : أما بعد كامب ديفيد فان الضغط للاستمرار فى منع الدعم لم يعد ضغطا داخليا من واقع حرصهم على استخدام جيش مصر لصالحهم ، ولكنه أصبح نابعا من خوفهم من أن جيش مصر أو اسرائيل قد يتحول ضدهم . فان المعارك بين مصر وليبيا أو بين الجزائر والمغرب لا تجعل من المستحيل أن يستخدم جيش مصر ضد بقية الدول فى المنطقة سواء العربية أو الافريقية . وعليه فان المعونات التى سوف تدفعها الدول البترولية لمصر سوف

(*) لقد أفرز الازهر معارضة منشقة عليه أدت الى أحداث جماعة التكفير والهجرة بينما أفرز حزب مصر معارضة منشقة عليه أدت الى أحداث ١٨ يناير .

تكون أقرب الى الاتاوة لتجنب تهديدها مثاها مثل الحقبة الناصرية مع اختلاف الدولة الكبرى المساندة • وخاصة أن الذى سوف ينوب فى الضغط فى هذه الحالة هو هذه الدولة الكبرى أى الولايات المتحدة والتى تملك فى النهاية حرية دعم كل من الجيش المصرى والجيش الاسرائيلى على السواء لاتمام الضغط بالقوة العسكرية ان لزم الامر ، وذلك لانها تفضل أن يكون دعم جيش مصر مباشرة من الاموال العربية بينما دعم جيش اسرائيل من الاموال المصرفية اليهودية والتى تأتى فى النهاية بطريق غير مباشر من الاموال النفطية العربية أيضا •

هذه الحقبة التاريخية تختلف عن سابقتها فى أن الازهر لم يعد له وظيفة لجذب المعونة السعودية بالمحايلة ولكن عليه أن يغير من هذا المنهج الى الضغط •

فالازهر حتى الآن كان يتخذ موقفا منسجما من السعودية تحت ادعاء أنها تمثل أكثر الدول العربية مناداة بتطبيق الشريعة الاسلامية ، رغم أن واقع الامر منافيا لذلك تماما اذ أن ما تفعله السعودية بالتحديد لا يختلف عما يفعله غيرها ممن ينعتون بالكفر وذلك بتطبيق بعض ما جاء فى الكتاب مما يلائم واقعها • لا تطبق (بدون جهر) بالبعض الآخر بل لا تطبق بالجوهر ، الذى لا يمكن أن يتلاءم مع واقعها • فلا شك أن السعودية حريصة على الابقاء على مظاهر الاسلام أشد الحرص ابتداء من قطع يد السارق الصغير الذى لا يعرف كيف يسرق دون أن يضبط ، الى التحجب فى الاماكن العامة (فقط) وبيع الخمر (علنا) للجمهور وهكذا • ولكنها مقابل ذلك تسرع الى ادانة أى محاولة للنقد فى اتجاه الحد من مظاهر الترف والانحلال على أنها مؤامرات شيوعية أو مبادىء مستوردة •

بينما يتجاهل تماما كون الدولة السعودية بها مظاهر واضحة للتخلف السياسى فى المنطقة ابتداءا من تسمية الدولة باسم أسرة ملكية تجمع فى يدها الحكم والملكية شبه الكاملة لمصادر الثروة الطبيعية النابعة من بطن الارض دون جهد يذكر ودون أن يناب جياع المسلمين منها الا الفتات باسم الدعم الذى يعطى وكأنه منة ، الى كون النظام الاجتماعى بأكمله قبلى بل وعنصرى يتميز فيه النجدى على الحجازى والسعودى على اليمنى • وهكذا حتى يأتى قرب آخر القائمة المصرى قريب جدا من اليهودى (ان لم يكن هذا يمتاز عنه من حيث أنه يستفيد فى بنوكه من الدولارات البترولية دون عناء يذكر) وغير ذلك من مظاهر التخلف والانحلال التى لا حصر لها •

ما كان يحدث هو أن السعودية كانت المستفيدة من الازهر وليس العكس رغم المعونات (البسيطة) التى تلقاها الازهر • وبما أن المجتمع كان فى حاجة الى الدعم (مهما كان شحيحا) الذى تقدمه السعودية فلم يكن هناك مفر من استمرار الازهر فى هذا الدور المعبر عن مصلحة المجتمع ككل • الا أنه لذلك أصبح الازهر يكاد يرتبط فى ذهن الناس بالسعودية وما يقابلها من الفئات المترفة المحلية فى مصر والتى تسير على نفس المنهج الدينى وهو أن تتشبث بمظاهر الاسلام دون جوهره • وهو ما يفسر اغتراب المعارضين من المسلمين عن اسلام الازهر والتفافهم حول الجماعات الاسلامية •

والازهر الآن معزول عن تلك القاعدة المعارضة ويكاد يصبح الآن معزولا أيضا عن السعودية الامر الذى يترك له حليف وحيد

متبقى من هذه الجبهة وهو الطبقة المترفة فى مصر والتى تمثل امتدادا للنمط السعودى • فلا مفر من أن ينخفض وزن الازهر لدى الدولة كلما زاد تناقض الدولة مع هذه الطبقة • وهذا يحدث بقدر ما أن هذه الطبقة لا تساهم مساهمة حقيقية فى الانتاج والضرائب وبالتالى فى تقوية الدولة • ان هذا التناقض سوف يجعل الدولة تضرب على تلك الطبقة بالضرورة • وفى هذه الحالة لن يكون للأزهر حليف بل قد تجد الدولة فى هذه الحالة حليفها بين الجماعات الاسلامية والتى تعارض الاوضاع القائمة حاليا •

ولكن تاريخ الازهر المجيد كحليف للتغيير لن يعضد تفاقم مثل هذا الموقف بل سيحتم عليه أن يعى اتجاه التغيير بأن يعيد تحالفاته ومواقفه • فمن جانب السعودية لم يعد هناك مكان للمجاملة ويجب نقد ادعاء الدولة الاسلامية هناك بالتدريج بحيث يكون فى ذلك أداة للضغط أقوى من الضغط العسكرى • وعلى المستوى الداخلى يجب أن يقوم الازهر بدور موازى ازاء الطبقة الطفيلية المستغلة والتى ترتع فسادا ثم تكفر عن ذلك بكثرة الحج والعمرة (غالبا لعقد الصفقات) بالتبرع لبناء المساجد (للحصول على أولوية فى مواد البناء) وبالتحجب وبالتظاهر بالصلاة والتقوى (لاخفاء حقيقة الرذائل التى تمارس فى الظلام) • فيجب ابراز ذلك الجانب من الدين الذى يبين الفرق بين جوهر الايمان ومظهره كما يجب ابراز الجوانب الانسانية فى تاريخ الاسلام والتى كانت تبرز العدالة والتقشف ، وبالتالى يجب الكف عن الافراط فى استغلال كلمة الشيوعية لتسب وكتهمة مرادفة للالحاد ضد كل من ينادى بالعدالة •

لقد كان التاريخ الماضى للازهر حافلا بالمواقف الوطنية والثورية فهل فى امكانه اليوم أن يستعيد تلك المكانة أم هل سيلقى مصـير الفاتيكان ويعـزل عن التأثير فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، فيفقد الاسـلام ما يميزه وهـو أنه دين للدنيا والآخـرة على السواء ؟

تكفير التفكير وتفكير التكفير

اذا كنا لا نريد التفكير ونرضى بالاشياء كما هى ونستمرئ التبلد واللامبالاة على الانفعال والفعـــل فسوف نرفض كل من يقلق راحتنا ويدعونا للتفكير • وقد نطلب منه الا يكون عناونا أو مشاغبا وأن يكون واقعيـــا وعلميا أو عاقلا متكيفا أو مؤمنـــا بما آمنـــا به وآمن أجدادنا •

فاذا رفض الخضوع لنـا وأصر على التفكير كفـــرناه بأن اتهمناه بالمشاغبة أو الخيالية أو الجنون أو الكفر ذاته • أى أننـا اتخذنا منه موقف تكفير التفكير •

واذا كنا من المفكرين الذين لا يرضون عن اشياء كمـــا هى ويرفضون ويناقشون مما يجعلنا فى حالة مواجهة مع التبلد ، وأخذنا موقفـــا متناطحا معـــه لدرجة اعتبار أن كل موقف يخالفنا لهـو تهـديد لنـا ونفى لوجودنا • فاذا لم ينفعل الآخـر لمـا ننفعل له طلبنا منه أن يفكر وينفعـل ويتحرك أو أن يكون مستنيرا مؤمنـا بما نراه من رؤية جديدة أو مخالفة • فاذا رفض اعتبرناه متبـلدا ميت الاحساس أو جاهلا أو كافرا بما نؤمن به • أى أصبحنا نتبع منهج متعصب للتفكير يكفر كل من خالفه ، أى تفكير التكفير •

حينما يكون الحوار ساخنا بين هذين الموقفين فقد يصعب علينا التفضيل • أيهما أفضل : أ ننضم الى الفئة المتبلدة التى ترفض التفكير وتكفره أم الفئـة المتعصبة فى تفكيرها التى تعتـــبر كل ما عداها كفـر ؟ أى هل الافضـــل أن أكون من أهل تكفير التكفير

أم تفكير التكفير ؟ والصعوبة أن كل من النقيضين يشبه الآخر ٠ فمن منا يريد أن يكون متبلدا لدرجة عدم التفكير أو متعصبا لدرجة تكفير كل تفكير مخالف ؟ وخاصة حينما يتضح لنا أن التطرف فى أى من النقيضين يقربنا من النقيض الآخر ؟ اذ أن الذى لا يفكر لدرجة اعتبار أن كل مفكر كافر لا يختلف كثيرا عن هذا الذى يفكر بحيث يكفر كل من يخالفه فى التفكير ٠

قد يكون الاختيار اذا بين التطرف فى الموقف والاعتدال ٠ فالمتطرف كما رأينا ينتهى بالالتقاء فى الموقف مع الطرف المناقض لنا الامر الذى يجعلنا فى موقف متعارض مع الموقف المعتدل وليس مع الموقف المناقض ٠ ولعل المثال الذى نستطيع أن نسوقه هنا فى مجال الطب النفسى هو حينما نقارن بين حالتين متناقضتين فى الفصام التصلبى أو الكاتاتونى ٠ ففى هذه الحالات نجد المريض يتأرجح بين نقيضين : أوقات يتصلب فيها جسده تماما ويمتنع عن الحركة ، وان كان فى حالة يقظة ، اذ أن حالة انعدام الحركة لا تقابل بالضرورة حالة الراحة أو النوم ، فقد يكون تصلبه فى وضع جسدى وهو جالس بل يكون وضع الجلوس غير مريح البتة كان يجلس دون أن تلمس مؤخرته المقعد الذى يجلس عليه أو ينام دون أن تلمس رأسه الوسادة ٠ وقد يضع يده أو رجله فى وضع غير معتاد وبالتالى غير مريح ٠ ثم نجده فى حالات أخرى يأخذ الموقف المناقض تماما لذلك فهو يفرط فى الحركة لدرجة قد تؤدى الى اصطدامه العنيف بكل ما حوله فيحطم الاشياء أو الاشخاص الذين يعترون طريقه ٠ هى حركة عشوائية وغير هادفة وغير اقتصادية أى لا تحقق نتيجة ، وبالتالى فهى حركة عقيمة تكاد تساوى فى نتيجتها اللاحركة التامة

التى كان يمارسها فى الحالة الاولى • الا أننا لو عدنا الى تلك
الحالة من اللاحركة سنتذكر أنها كانت لا حركة مجهدة وتستغرق
جهدا وطاقة وا نكانت بلا نتيجة وغير اقتصادية هى اخرى •
ان الحالتين ـ التصلب والحركة العشوائية الغير هادفة ـ يلتقيان
سويا فى أنهما يحققان نفس النتيجة وهى العقم أى اللانتيجة
وانعدام الاقتصاد فى المعادلة • بل اننا نستطيع أن نعتبر
أن الحالتان وجهان لنفس العملة • ونستطيع أن نرى العنصر
المشترك هنا فى الموقف من الحركة • فالخوف الشديد من الفناء
الذى نجده فى هذه الحالات يعبر عن نفسه فى الخوف المفرط من
انعدام الحركة فيؤدى الى الافراط فى الحركة الذى يميز الحالة
الهائجة للفصام التصلبى أو حالة الهياج التصلبى ، الا أن
المريض سريعا ما يتيقن أن الافراط فى الحركة قد يؤدى الى
حالة الفناء التى يخافها أصلا فهناك بعض حالات الهياج
التصلبى التى تنتهى بموت المريض من كثرة الحركة • وقد يكون
الموت نتيجة الارهاق المفرط أو نتيجة اصطدامه العنيف بالواقع
سواء كان الواقع المادى بمعنى اصطدامه بالآلات الحادة
والحارقة أو الواقع الانسانى أى دخوله فى صراع مع من هم أقوى
منه فيفتكوا به • وقد يعيش المريض خبرة الحركة المفرطة هذه
فى الواقع فيتيقن من خطورتها أو فى الخيال فيتنبأ بخطورتها •
وفى كلتا الحالتين فهو يسرع للنقيض الآخر ويبالغ فيه لكى
يحمى نفسه من الافراط فى الحركة • أى أنه يلجأ الى الانعدام
التام للحركة أو حالة التصلب الحركى • كما لو كان فى تصلبه
يعبر بطريقة مباشرة عن هذ االخوف الشديد من الافراط فى الحركة
الذى يؤدى الى الفناء ولكن وسيلة التعبير ذاتها تحقق الرغبة
التى كان يخافها ، وهى حالة الفناء فى صور ةاللاحركة •

اننـا فى هذه الحالة نشاهد كيف أن الافراط فى التطـرف يلتقى مع نقيضه فالحركة المفرطة تعبير عن خوف من الفناء أو خوف من اللاحركة التـامة بينما التصلب أو اللاحركة يعبر عن الخـوف من الافراط فى الحـركة الذى يؤدى أيضـا الى الفنـاء أو الموت أو اللاحركة التامة ٠

أى أن الحركة المفرطة تعبير عن الخوف من اللاحركة المفرطة والذى هـو تعبير عن الخوف من الحركة المفرطة ٠٠ والذى هو تعبير بدوره عن الحركة المفرطة ٠٠٠ الى ما لا نهاية ٠

والذى ينتج عن هذا التأرجح بين النقيضين هو أن يصـبح النقيضين تعبيرا عن موقف موحد فى مواجهة موقف آخـر وهـو موقف اعتدال فى الحركة ٠٠ والمريض الذى يتأرجح بين النقيضين يجد نفسه فى حالة تصارع مع الواقع الذى يعيش فيه والذى يمثل الاعتدال فى الحركة ٠٠ فان الواقع ينجح فى التغلب على المريض ٠٠ فاذ كان عديم الحركة أو مفرط الحركة فان الواقع يطلب منه تغيير موقفـه وقد يلجأ الواقع فى ذلك الى العقاب البدنى بأشـكاله أو العقـاب الانسانى بواسطة عزل المريض عن المجتمع فى مستشفى خاص للامراض التى تؤدى الى تناطح بين الفـرد وبيئته الاجتماعية (أى مستشفى أو مصحة للأمراض النفسية أو العقلية على حسب التسمية الدارجة) ٠ علاوة على الوسـائل العلمية الكيمائية الحديثـة التى تنجح فى عزل المريض داخليا بأن تمنع الاشـارات المخية العصبية المفرطة الامر الذى يزيل خوف المريض من الحركة المفرطة مما يغنيه عن اللجوء الى حالة اللاحركة ٠ أو العقـاقير التى تفعل هذا دون أن تعيق قدرة المريض على الحركة تماما بل تثير

الحركة مثل بعض العقاقير المؤثرة على الجهاز العصبي بالتهدئة دون التنويم .

وكلما زاد العلم تقدما وزاد المجتمع طمأنينة وقوة كلما زادت القدرة على تحويل العقاب الى علاج أو تحويل العقاب من عملية لا انسانية الى عملية انسانية . والتحويل ليس مجرد تعبير عن رغبة فى فعل الخير أو مثالية بحتة ولكن هناك مصالح حقيقية وأسباب موضوعية تدعو الى مثل هذا التغيير وهو فشل الوسائل العقيمة الجسدية فى تغيير موقف المريض وضرورة البحث عن وسائل أخرى تأخذ فى الاعتبار الاسباب التى تؤدى الى هذا الموقف من جانب المريض وأهمها أن المريض يخاف ويحتاج الى طمأنة وليس الى المزيد من التخويف له .

من هذا المثال يتبين لنا أن المتطرف فى جانب يقربنا من الجانب الآخر الذى يتطرف ضده مثلما الافراط فى الحركة يتقابل مع الافراط فى اللاحركة أو الافراط فى التفكير النابع من حالة التبلد لكل من يمارس التفكير يجعلنا فى لقاء من الافراط فى التفكير لكل من لا يفكر مثلنا فنكفره . وكلا النقيضين يعبران عن نفس الموقع والذى يجعلها فى تناقض مع طرف جديد وهو الواقع . وفى هذا التناقض الجديد فان الواقع ينجح فى فرض وجوده على الطرفين . ويبدو وكأن التناقض قد انتهى . الا أن الواقع به جانب آخر لا يمكن أن نغفله وهو أنه بطبيعته متغير ولكى يتغير لابد وأ نيواجه ما يتناقض معه . فاذا ما نجح الواقع فى القضاء على ما يتناقض معه فانه سوف يفرز تناقضا جديدا معه يدخل معه فى حوار أو صراع حتى يحدث التغيير أو التطور الذى هو جزء من هذا الوجود فى الواقع .

أى أن التناقض بين الواقع والتطرف ظاهره الرغبة الملحة من جانب كل طرف فى القضاء على الآخر (أى عملية التكفير المتبادل) الا أن الحقيقة أن القضاء على التطرف بصفة دائمة مستحيل ولابد له وأن يعود لكى يستمر الواقع فى الوجود • أى أن جوهر الامر أن الواقع فى رغبته فى القضـاء على التطرف لا يريد القضـاء على التطرف وانما هى مجرد مرحلة فى الحوار • سرعان ما يتلوها ظهور جديد للتطـرف •

اذا كنا هكذا كالدمية فى يد اللاعب أو كالممثلين فى يد المخرج والمؤلف فما الذى نستطيع أن نفعله ؟ أين حرية الانسـان واختياره ومسئوليته ؟ لعل الاجابة تكمن فى أن معرفتنا بالقوانين التى تحرك وجودنا تعطينا حـرية حقيقيـة فى أن نختـار بين التوافق مع تلك القوانين أو التعارض معها • فاذا اخترنا التوافق التام ربما فقدنا احساسنا بالحرية بينما اذا اخترنا التناطح المتطرف فقدنا أيضا احساسنا بالحرية نتيجة لا ن القانون الذى يحرك الاشياء هو الذى يحرك الاشياء وليست رغباتنا فقط هى المحركة • الحرية الحقيقية التى نملكها هى حرية الطاعة لتلك القوانين والتوافق معها •

واذا أخذنا المثـال المذكور فاننا نكتشـف من خلال معرفتنا بالقوانين أن التناطح مع الواقع الذى يمارسـه الفصامى التصلبى يجعله ضحية الواقع بينما التناطح الذى يمارسه الواقع مع الفصامى يجعله ضحية الفصامى (فالواقع يرضخ له ويكون له عالما خاصا به ويشعر بالعجز ازائه) ولكن معرفة القوانين تعطينا حرية أخرى وهى أن نحول هذا التناطح المتبادل بين المريض والمجتمع الى حوار أكثر انسانية الأمر الذى يزيد من احتمال نجاح كل طرف فى الاعتراف

بالآخر أى التنــازل عن موقف التكفير المتبــادل • وكلمــا ازدادت وسائلنا ازداد نجاحنا •

هل لابد اذا من الاستمرار فى تكفير التفكير أو تفكير التكفير ؟

اننا نملك الاختيار اليوم ونحن فى صدد المحاكمة الاجتماعية لمظاهر المعارضة المتطرفة ونحن نكفر جماعة التكفير لانهم يفكرون أو يفكرون غير ما نفكر بأن يكفروا ما نفكر فيه •

ان الجماعة لها رأى .. واذا انشق فرد على الجماعة قالوا عنه « أنك لمجنون » . فاذا أصر على رأيه وجد دالقوة التى تجعله قادرا على فرض رأيه على الجماعة أصبح هو ممثل الجماعة وصار كل من يخالفه هو المجنون . من العاقل ومن المجنون ؟

الواقع يقول أن رأى الجمـاعة هو العاقل ورأى المنشـق هو المجنون . والواقع هو الذى يفرض وجوده فى زمانه ولذلك فرأى الجماعة اليوم هو العاقل ورأى المنشـق هو المجنون . ولكن هناك جانب آخـر من الواقع لا يمكن أن نغفله وهـو أن الواقع لا يدوم ، وما يصـير عليه الغد قد يكون ما يقال عليه اليوم جنـون ، وما هو واقع اليوم حين يأتى غده قد يصبح من الجنون .

اننا يقدر تواجدنا فى واقعنا نفضله على أمسـنا وعلى غدنا على السواء ونقول على ما كان بالامس وما سوف يأتى بالغد ان هذا أو ذاك لجنون . والواقع فى محاولاته لاغماء نفسـه عن غده وعن أمسه قد ينغلق على ذاته ويتحجر حتى يفرض الزمن عليه جانبا آخر للواقع ـ وهو أنه لن يدوم ـ فيتحول الى جنون .

طالما نحن نصر على أن كل من يخالفنا فى الرأى ـ أمسـنا أ وغدنا ـ ـ مجنون فلا بد أن نقبل أن أمسنا وغدنا سوف يجرانا الى موقع الجنون . فالأمس مهما مضى وأنتهى فهو جزء منا لا يمكن أن نغفله ، والغد جزء كامن منا سوف نكون عليه ولا يمكن أيضا ان أن نغفله . ووجودهما حق علينا أردنا أم لم نرد . واذا كنـا نريد

اننا حينما نطالب بتطبيق الشرائع الاسلامية مثلا دون أن نفعل شيئا نحدث به التغيير فى الواقع • فاننا لا نفعل الا ذلك • المسلمين الذين يعرفون تاريخ الاسلام المجيد بينما يرون واقعا يبدو بعيدا عن الاسلام ويرون الداعين الى المجتمع الاسلامى لا يقومون بأى تغيير يذكر فى الواقع ويكتفون بالمطالبة بتطبيق التشاريع دون أحداث تغيير فى الجوهر ، هؤلاء المسلمون لا يسعهم الا أن يشعروا بالاحباط وازاء هذا الاحباط فان البعض منهم يتطرف فى المطالبة بالتغيير فتنشأ الجماعات المتطرفة • الا أن تطرفها بالتالى لا يترك لها الا المعارضة الغير فعالة ، وان كانت أكثر تطرفا بل انها تؤدى خدمة للواقع الذى يجد فى تطرفها مبررا للقضاء على المعارضة برمتها • ووسط هذا الاحباط ازاء الواقع الخارجى فان المعارضة لا تستطيع الا أن تهاجم ذاتها • ولذلك فان جماعة التكفير والهجرة حينما عجزت عن أحداث التغيير فى الواقع تحولت على نفسها فأخذت تقضى على المنشقين عليها من أفرادها حتى أيقنت انها بذلك سوف تنتحر باثارة التناقضات الداخلية وكان عليها ان تبحث عن كبش فداء خارجها ولكنها ازاء المجتمع الاكبر تشعر بالعجز ولذلك فهى تهاجر وتترك المجتمع وتجمع صفوفها وتقويها وتكسب المزيد من الانصار • ولكن أخلص أنصارها هم من أهل المعارضة ، وفى نظرهم المعارضة هى المطالبة بالمجتمع الاسلامى • أغلبهم يقفون وراء قادة غيرهم وهم قادة الازهر ولذلك كان لابد للجماعة لكى تكسب هؤلاء الانصار قبل الانقضاض على المجتمع ككل أن تعزل قادتها بأن تشكك فيهم فاذا عجزت لجأت الى أن تقضى عليهم جسديا • وقد يفضلون الدعوة والكلمة، ولكنهم بعجزهم عن النفاذ الى الآذان يصرخون فى يأس فيرتكبون الاعمال العنيفة لكى ينبهوا المجتمع بواسطتها لوجودهم وللاستماع الى كلمتهم •

الا أنه سلاح ذو حدين فالمجتمع المصرى مجتمع مسالم لم يتعود العنف أو نستطيع أن نقول أنه مجتمع يكبت العنف ومن شدته فهو لا يطيق أن يذكر به • ولذلك فان الجماعة حينما تلجأ الى هــذا السلاح فانها قد تفقد تعاطف المجتمع • انها تلجأ الى هذا السلاح طالمـا أن المجتمع لا يسمعها •

ولعل التساؤل هو هل لا يقولون ما يسمع أو المجتمع لايسمع ما يقال ؟ اذ أن المجتمع حينما لا يستمع الى المعارضة يتشابه مع المعارضة حينما لا تجعل نفسها مسموعة للمجتمع • وفى الحالتين فان المسئولية مشتركة عن ظهور المعارضة العنيفــــة المتطرفة • والمعارضة حينما تعجز عن مواجهة المجتمع فانها تنشق علىنفسها• التكفير والهجرة تمارس التصفية الداخلية بها • ثم المعارضـــة الاسلامية تمارس التصفية الداخلية ذاتها • • الجماعات الاسلامية المتطرفة تلغى القيادات الاسلامية السائدة وتكفرها وتهاجر عنها والقيادات السائدة بدورها تكفر كل من ينحرف عنها ومن هنا فان المعارضة انتقلت من مرحلة التصفية الداخلية على المستوى الداخلى لعشر التكفير والهجرة الى المستوى الداخلى الاوسع لعشر المطالبين بالمجتمع الاسلامى ،مما يجعل أول ضحايا المتطرفين خارج صفوفهم الداخلية هم رجال القيادات الاسلامية السائدة • والسؤال هو : لصلحة من يتعارك المسلمون ويقتل الداعون للاسلام بعضهم ؟ومتى تستطيع القيادات الاسلامية جمع صفوفها الداخلية ؟ هل نستطيع أن نفترض أن هناك جهات أجنبية أو محلية يهمها أن ينشــق المسلمون على أنفسهم وأن ينشق المسلمون على الدولة والمجتمـع وأن تهتز صورة المعارضة الاسلامية ؟ وهل فى ذلك رد على الوقيعة المشابهة التى حدثت بين المعارضة الحزبية وبين الدولة نتيجــة لاحداث ١٨ يناير ؟ والمصلحة من يقضى على المعارضة بأشكالهـا المختلفة وأطرافها مهما بدت متناقضة ؟ من الذى يهمه أن يعــود

الحال الى وضع الاستبداد الذى يرفض المعارضة فيعود الحاجز الذى يحجب بين القيادة والقاعدة ؟

ان شعار التكفير والهجرة هو تعبير عن اليأس فى المعارضة العلنية وضرورة الاختفاء فى الجحور . أفلم يحن موعد اعادة النظر فى المواقف المتطرفة بأن نعيد التفكير ونعود الى الواقع لنساهم فى تغييره أن نحول التكفير والهجرة الى التفكير والعودة ؟

ان القيادة الاسلامية السائدة تتارجح بين هجرة الواقع على الاقل بالقول والمجتمع بالتالي يهاجرها على الاقل بالفعل فهو لا يضيره أن يدين لها بالولاء فلابول فمن منا لا يتشدق بالاسلام سواء كنا فى القمة أو فى القاعدة ، فى اليمين أو فى اليسار ؟ وبانعدام الحوار أصبحت المعارضة الاسلامية معارضة فى الخفاء وتولدت الجماعات المتطرفة . ثم تحول قادة الاسلام عن ذلك الجماعات وتحولت تلك الجماعات عن القادة وكان التكفير المتبادل والهجرة . وانشقت صفوف المسلمين . أفلم يحن موعد التفكير والعودة وذلك بأن تبدأ القيادة الاسلامية الراهنة الحوار داخل صفوفها فى الوقت الذى تنشىء الحوار بينهما وبين المجتمع بأجهزته المختلفة ؟ والاسلام كعقيدة وحضارة يسمح الى حد كبير بمثل هذا الحوار الداخلى ، اذ لا يوجد فيه كهنوت يسمح لقلة أن تفرض وجودها على كثرة ولا وسيط بين العبد وربه ، فهو أقرب اليه من حبل الوريد .

ماذا يريد النظام من الشرفاء ؟

تمر المجتمعات بحلقات فى تاريخها تتبادل فيهـا فترات. من الدعوة الى المبادىء على حساب المصالح ويتلاحم فيهـــا الفرد مع المجموع وترتفع القيم التى تؤكد الجماعة على حســـاب الفرد مثل الشهامة والشجاعة والتضحية وذلك أثناء مواجهة خطر ما يهـــدد الجماعة ككل ، ثم تأتى فترات تستقر فيها الاحوال بعد زوال الخطر ويعود الافراد للاهتمامات الذاتية على حساب الجماعة ويـــزداد انشغالهم بالراحة الجســـدية والترف وما يصاحب ذلك من قـدم فردية •

وليس بعيدا عن الذاكرة أن نستعيـــد فترة أكتـــوبر ١٩٧٣ وما حدث فيها من تحولات كادت تفوق التصديق ظهـرت فيها قيم انكار الذات بوضوح • ولكن مع استقرار الحال بعد ذلك وظهور بوادر الامل فى الراحة والمتعة التى كانت منتظرة كنتيجة لسياسة الانفتاح والسير فى طريق الســلام ، عادت القيم الذاتية الفردية مرة أخرى •

وكلما زاد الاستقرار زادت الذاتية • الامر الذى يؤدى الى حالة تناقض بين الذاتية والجماعية • وذلك فى صورة التناقضات التى تظهر داخل المجتمع بين الافراد أولا ثم تأخذ فى التبلور حتى تأخذ صورة التناقضات بين مجموعات من الافراد • ويعود الصراع مرة أخرى ولكن هذه المرة يصير العدو داخليا وليس خارجيا • ومع تزايد الوعى الجماعى تعود القيم الاخلاقيـــة مرة أخرى ولكن بين أفراد كل جماعـــة على حدة • فالفـــرد حينما يعجز عن تحقيق

ما يسعى اليه بمفرده الى الجماعة بحثا عن البقاء مع انضمامه للجماعة يستعيد القيم الاخلاقية تجاه الجماعة فينكر ذاته . فهو ينكر ذاته لتأكيد بقائها .

الا أن هذا التناقض بين الجماعات اذا ما تفاقم هدد المجتمع الاكبر بالتفكك الامر الذى يغرى العدو الخارجى على معاودة تهديده . فقد سبق أن كف عن التهديد لانه أدرك أن غريمه ليس باللقمة السهلة ، ولكن اذا ما رآه يتفكك فليس هناك ما يمنعه من اعادة النظر فى حساباته . وهنا تبرز مرة أخرى مصلحة المجتمع ككل والتى تجد التعبير عنها من خلال « النظام » . النظام بهذا المعنى هو ما يحافظ على تماسك المجتمع ويضع حد للفوضى التى يمكن أن تنتج عن تضناطح الافراد أو الجماعات المنشقة داخل المجتمع الاكبر . ويمثل هذا النظام من يفوضهم المجتمع فى تولى أمور السلطة به أى القيادات (السياسة) الحاكمة

الا أن النظام بدوره لكى يحافظ على التوازن داخل قوى المجتمع المتصارعة لابد له أولا أن يملك القوة التى تجعله حكما بين المتصارعين وكذلك الحكمة التى تجعله لا يدخل فى تناطح مع أكثر من طرف أو مع طرف قوى بحيث يودى به . فالنظام بهذا المعنى يعبر عن حصيلة القوى الاجتماعية المتفاعلة فى داخل المجتمع الاكبر .

وقد تتغلب الحكمة أحيانا على القوة فيجد النظام نفسه مساندا للطرف الاقوى من أطراف الصراع حتى يستقر الصراع ويعم السلام الاجتماعى . ولكن الطرف الاضعف لا يستطيع أن ينسى هزيمته فهو متألم . بينما الطرف الاقوى لا يريد استعادة الموقف الذى كان فيه مهددا . واحد لا ينسى الهزيمة والآخر مستمر فى تأكيدها . والنتيجة أن الطرف الاضعف يستمر فى بناء قوته

والإستعداد للانتقام فيعادى الطرف الاقوى والحكم الذى أيده أى النظام برمته ٠ وهنا يجد النظام نفسه يعود للقوة ليمنع نشوب المعارك مرة أخرى ٠ وسعيا لتجنب تكرار العداء فانه يعيد حساباته ويعطى المزيد من الانصاف للطرف الاضعف وذلك على حسبمايتمتع به من قوة تجعله قادرا على مواجهة الطرف الاقوى الذى سبق أن تحالف معه ٠

والذى يؤكد ضرورة استمراره فى هذا الاتجاه هو كونه ممثلا للمجتمع الاكبر يعلم أن أى تفكك داخلى سوف يعرضه مرة أخرى للتهديد من الخارج ٠ كما أنه يعلم أن انعدام الانصـاف لاطراف الصراع سوف يؤدى الى تأجيل الصراع أو اتخاذه مظاهر بديلة ٠

ومثله مثل أى وسيط أو حكم فانه كثيرا ما يصيبه الضرر من الجانبين المتصارعين ، وقلما يرضى أى طرف من الاطراف المتصارعة بحكمه فهو دائما متهم من قبل طرف أنه متحيز للطرف الآخر ٠ ولذلك فان النظام يجد نفسه تدريجيا وقد أصبح له كيان مستقل يكاد يكون طرفا من أطراف الصراع وان كان بحكم الضرورة لابد وأن يكون الطرف الاقوى ٠ ولعله يعضـد قوته بأن يحفظ التوازن بين الاطراف المتصارعة بحيث لا تتناطح مع بعضها للدرجة التى تؤدى الى تفكك المجتمع وكذلك لا تتحد سويا ضده بحيث تؤدى الى انهيار النظام بأكمله ٠

وبقاء النظام مرهون أيضا بقدرته على تنمية انكار الذات به بحيث يكون نصيب الفرد الذى ينكر ذاته مكانه فى صفوة النظام ، أى كلما زادت قدرته على تجاوز القيم الذاتية التى يتناطح عليها الاطراف المتصـارعة وأنكر سعيه وراءها كلما زاد نصيبـه من التفويض فى السلطة التى يتولاها لكى يكون حكما بين الطرفين ٠

فان القيم التى تؤهله لكى يكون حكما حائزا على القدر الاكبر من السلطة تتصف بدرجة ما من النفى للقيم التى تتصارع عليهـــا الاطراف المختلفة فى حالة المجتمع الذى وصل الى حالة الاستقرار والسلام وزال عنه التهديد الخارجى الى حد كبير فان القيم السائدة كما أشرنا تتصــل بتوفير الرفاهية والرخاء والراحة الجسدية • نستطيع أن نشير اليها باختصار بأنها قيم الاستهلاك وجمع المــال بهدف انفاقه • فالذى يسعى الى السلطة اذا لابد أن تكون قيمــه متناقضة بدرجة ما مع هذه القيم ، فيملك قدرا من انكار الذات والقدرة على تحمل الحرمان والتقشف • نستطيع أن نشير اليها باختصار بأنها السلطة والتى تسعى الى الحد من الاستهلاك والى توفير المال • ولكن المشكلة تأتي حينما تكون الغلبة فى المجتمع للمجموعة الاولى من القيم وبالتالى فان الحاكم الذى يدين بالولاء لهذه القيم قد ينظر اليه على أنه معاد لمـا هو سائد وبالتالى يمثل خطورة على ما هو سائد • ولكنه اذا لم يدين بالولاء لقيم السلطة أى المجموعة الثانية من القيم فان الطرف الاضعف والذى يكون الغالبية العددية وأن كان لا يمثل بالضرورة الثقل الاقتصادى والسياسى الذى يعكس حجمه العددى ، هذا الطرف قد يأخذ منه موقفا عدائيا • وهو كما ذكرنا الطرف الاضعف والاكثر عددا ويمتاز بأنه الطرف المحروم والمهزوم مهما طال الزمن حتى تأتي اللحظة المناسبة لينقض • فهو يعلم أن القوى مهما بلغت قوته لابد له من لحظة ضعف أ ونقطـــة ضعف يستطيع أن ينفذ اليه من خلالها • بل وان القوى حينما يستقر فى مكانة القوة ويطمئن الى قوته يضع قدمه على بداية طريـــق نهايته ، ولهذا فان الحكم ليستمر كحكم ولكى يحتفظ بقوته لابد له وأن يتجاوز القيم السائدة لانه يملك من بعد الرؤية ما يجعله يرى أنها قيم زائلة ومؤقتة • علاوة على أنه لكى يكون حكما أصلا لابد له وأن يكون قد فضل قيم السلطة على قيم المال • وانه حتى على افتراض انجذابه مرحليا لقيم المال كتعبير عن سيادة تلك

القيم فى مرحلة ما قادرا على تجاوز تلك القيم والابقاء على قيم السلطة ٠

ان المجتمع الذى يعطى الافضلية لقيم المال سوف يتبلور حتى على افتراض انجذابه مرحليا لقيم المال كتعبير عن سيادة تلك القيم فى مرحلة ما قادرا على تجاوزات تلك القيم والابقاء بطبيعته الى طرفين متناقضين :من يملكون ومن لا يملكون أو حسب التعبير الانجليزى (navesand nave outs).

وهنا لابد أن تبرز قيم جديدة تعوض من لا يملكون ويرغبون ،عن حرمانهم ٠ ويفرز المجتمع القيم الاخلاقية المختلفة ونجده يعود الى القيم الروحية فيعد المحرومين فى بالتعويض فى السماء حتى يستطيعون على حرمانهم صبرا : « الصبر طيب ، الصبر مفتاح الفرج ٠٠٠ الغلبانة كسبانة ٠٠٠ بعد العسر يسر ٠٠ ضيقى يا أزمة تنفرجى ٠٠٠ » وغير ذلك ٠

ولكن والقيم الاخلاقية والدينية تجد أن من يمارسها بصدق هم الفقراء والمحرومين بينما الاثرياء يتشدقون بها ويتظاهرون بها لتجنب حسد المحرومين وغضبهم فيوزعون الفتات مما يكسبون على الفقراء باسم الزكاة ، ويؤدون الشعائر كالصلاة والصيام وبالطبع الحج الذى يحقق زيارة بيت الله مع المزيد من الصفقات التجارية ، بينما يستمرون فى الاتخام المالى يجمعون المزيد وكلما أدى ذلك الى حرمان آخرون كان من الممكن أن يحصلوا على هذا المكسب ، وكلما زادتبالتالى المسافة بين الذين يملكون والذين لا يمكلون وزادت الحاجة الى المزيد من القيم الدينية والاخلاقية ٠

وعند هذه النقطة يحدث تحول ما فى طبيعة هذه القيم لكى تناسب واقع التناقض المتزايد ٠ فتظهر قيم العدالة والحق وانكار الذات والتقشف أى قيم السلطة بدلا من قيم المال ٠ ويبدأ الدين فى اكتساب طابع ثورى بدلا من الطابع الذى كان يتسم بالتسالم

والرضى والصبر • وهنا تظهر الجماعات الدينية « المتطرفة » والتى تتسم بالفاعلية السياسية فى ذات الوقت الذى تنادى فيه بالقيم الروحية •وتجد نفسها تلتقى فى تحركاتها مع الجماعات الاخرى الفعالة سياسيا بعبارة أخرى فان قيم السلطة تعود لتأخذ مكانتها فى وضع متناقض مع قيم المال • وتبرز بالضرورة تلك القيم فى المجتمع ويزداد الضغط الاجتماعى من المجتمع على الحكم لكى يزداد ابتعادا عن قيم المال وانحيازا لقيم السلطة وهو الامر الذى كان أصلا يتميز به الحكم والا لما صار حكم يفوضه المجتمع بكل هذا السلطان •

وهنا يجد الحكم ضرورة لاعادة ترتيب صفوفه وانتماءاته فيبحث عن هؤلاء الذين يفضلون قيم السلطة على قيم المال وكان حتى قريب يجد الاثنين ملتقيين فى نفس الشخص حينما لم يكن التناقض واضحا : فالذى يريد المال لابد وأن يكون مسنودا بالسلطة • كأن المال طريقا الى السلطة مثلما كانت السلطة طريقا الى المال • ولكن مع وضوح التناقض أصبح لابد أن يميز الحكم بين من يفضلون السلطة اساسا ، فهو أحوج اليهم ممن ينظرون للسلطة كمجرد وسيلة لجمع المال • فهو يريد أن يؤكد قيم السلطة بل ويستعيدها فى نفسه حتى لو أدى ذلك الى تناقض واضح مع قيم المال ، فالذى سعى الى السلطة فى المقام الاول يعرف أنها أبقى وأمجد من المال • فهو يعرف أن السلطة هى الطريق الى المجد ، والمجد هو ما يبقى بعد السلطة وبعد المال بل بعد موت الجسد • وكلنا نسعى الى الخلود خوفا من الموت •

الحكم فى هذه الحالات يبحث عن من يوصفوا بأنهم «الشرفاء» أى الذين يفضلون قيم السلطة من أجل خدمة الآخرين وسعيا للمجد وليس للمال • والصعوبة فى الاختيار تأتى حينما يختلط الباحث من

أجل هذا مع الباحث من أجل تلك • ولكن قوانين الانتقاء الطبيعى فى صراع السلطة سوف تبرز من ينطبق عليهم صفات القيم المطلوبة وهى قيم السلطة قبل المـال • فاذا كان الساعى وراء السلطة منعدم المال ثم أصبح يزداد ثراءا فانه غالبا ممن ينطبق عليهم غلبة قيم المال على السلطة • اذا كان الساعى وراء السلطة منعـدم المـال ولا يسعى الى زيادته فانه من جانب آخر سوف يعرض نفسه لمجازفة الخروج من السلطة فى وقت ما وقد « خرج من المولد بلا حمص » فلا هو صار رجل أعمال كما كان متاحا لو لم يدخل صراع السلطة، ولا هو أبقى على مكانته بالسلطة • واذا كان الساعى وراء السلطة يملك المـال أصلا ثم أضاف اليه بعد وصوله للسلطة فان ما ينطبق فى الحالة الاولى ينطبق عليه • واذا لم يضيف اليه مثل الحالة الثانية فلعله أقرب فى احتمال الحصول على لقب الانتمـــاء للشرفاء دون خسارة كبيرة •

فلكى ترتبط السلطة بالشرفاء لابد لها من درجة من الاستقرار والضمان تجعل الذى يسعى اليها لا ينظر اليها كمجرد وظيفة طارئة لابد أن يستغلها لاقصى ما يمكن فى أقصر وقت حتى يأتى موعـــد خروجه منها • وفى هذه الحالات فيمكن فرض رقابة على من يدخل لعبة السلطة للتأكيد من عدم اساءة استخدام السلطة من أجل الثراء• بهذه الطريقة يمكن أن نرتقى بقيم السلطة ونعطيها أفضلية على قيم المـال وبالتالى تكتسب القوة التى تجعل من الحكم حـــكما يستطيع أن يسيطر على تناقضهما بحيث لا يؤدى ذلك الى تناطح داخل المجتمع ينتهى بتفككه ويعرضه للعدوان الخارجى •

أما من ناحية القيم الدينية فيجب أن يبرز فيها الجانب الذى يؤكد قيمة السلطة على المـال • اذ يدعى أن الماركسية تقول بأن الدين أفيون الشعوب لانه يمنع الشعوب من الوعى بآلام الحرمان التى

تجعله يثور على الاوضاع الظالمة التى تؤدى الى ايلامه • وعلى افتراض أن هذا الادعاء صحيح فالذى لابد أن نؤكده أن الدين لا يقوم بهذه الوظيفة أى وظيفة تسكين الالم دون علاجه ، بل يجب أن نبرز فى القيم الدينية ما يدين الظلم والاستغلال فى هذه الدنيا • والدين الاسلامى بالتحديد أقدر من غيره على اظهار ذلك الجانب فهو دين للدنيا والآخرة على السواء ، يعد فى الجنة بالتعويض ولكنه فى الوقت ذاته يسعى الى تنظيم أمور الدنيا • وهنا لابد من التحذير من وظيفة الادعاءات التي تهدف الى الوقيعة بين «المتطرفين» من المانحين بالقيم الدينية والمنادين بالعلم • فكلاهما يلتقى حول رفضه لقيم المال والمتمثلة فى المدافعين عنها فى المجتمع من الذين يملكون أو الاثرياء • وهؤلاء يهمهم بالضرورة أن يستمر القوى المعارضة لهم فى تصارع فيما بينهم حتى ينشغلوا عنها وتبقى الغلبة لهم • فأحدهما يتهم الآخر بالالحاد والآخر يرد له تهمة الرجعية والتخلف • وتضيع المعركة الحقيقية فى خلافات عقائدية عقيمة بينما الواقع يستمر كما هو • ولكن شعار العلم والايمان الذى طرحه نظام الحكم هو ذاته الذى يفتح الطريق للالتقاء بين تلك القوى المتصارعة ظاهريا • فالمسلم لا يمكن أن يرفض استخدام التكنولوجيا الحديثة لمجرد أنها لم ينص عليها فى القرآن ، ومن نفس هذا المنطلق فهو لا يرفض المنهج العلمى فى المجالات الاخرى التى تتجاوز التكنولوجيا المادية الى العلوم الانسانية والسلوكية مثل الاقتصاد والعلوم السياسية والعلوم الاجتماعية والعلوم النفسية• ولا يهم المسلم أن الذى اكتشف نظرية ما كان ملحدا أو مشركا فهو يستخدم ما فى هذه النظرية يلائم معتقداته • والماركسية قد يكون لها جوانب فلسفية أو أخلاقية يرفضها المسلم ولكن هذا لا يعنى أن يرفض كل ماله صلة بالماركسية بطريقة تشبه حالة الرهاب المرضى أو جنون الاضطهاد وبحيث يستمر فى توسيع دائرة مخاوفه حتى تشمل كل ما يتصل بالماركسية من قريب أو بعيد بادئا

بالاشتراكية العلمية ثم الى الاشتراكية ذاتها وربما الى مفهوم العدالة أو الثورة والله أعلم اذا كان هذا التعميم قد يمتد الى كل كلمة تشمل فى حروفها حروف تلك الكلمات ٠

ان الشرفاء الذين يحتاجهم الحكم هم من يستطيعون تجاوز الحاضر وما به من قيم سـائدة وقصيرة الامد وهى قيم المال والرفاهية الفورية والراحة ، دون أن يتعالى عليها أو ينكرها بل يؤجلها بتجاوزها الى ما هو أبقى من المال وهو السلطة والمجد ٠ وكذلك يملكون القدرة على تجاوز الاشعارات والمواقف اللفظية الى القدرة على العمل فى مجال الواقع بهدف تطويره الى الافضـل فيفتحون صدورهم وعقولهم لكل ما يضىء الطريق فى اتجاه الحقيقة دون أن يتقيدوا بمواقف مسبقة مملاة عليهم من غـير ضمائرهم فيقتطفوا الحقيقة من كل زهرة متفتحة ٠ أنهم يملكون من القوة والبصيرة ما يجعلهم يأخذون بالمواقف الجريئة والجديدة ويذهبون الى أعدائهم فى عقر دارهم يمدون يد الحوار واللقاء بدلا من الخوف والانكماش ٠

ان المبادرة التى قام بها الرئيس الســادات والتى أذهلت أصدقائه وأعدائه على السواء ، هذه المبادرة تعبر عن القدرةالمطلوبة لتجاوز الواقع دون خوف ، والقفز أمام الزمن فتسبقه بدلا من أن تتركه يجرنا ورائه متخلفين أو رافضين ٠

هكذا الشرفاء أيضا على المستوى المحلى : يبادرون بفتـح صدورهم للاعداء دون ما تعيقهم التسميات السابقـة والشعارات ويبدئون فى الحوار الداخلى من أجل تحقيق السلام داخل المجتمع بواسطة الحوار بين الاطراف كتعبير عن الصراع الحضارى بدلا من ترك الفجوة تزداد والحو اريتحول الى حوار أصم حتى ينفجر

ويتحول الى حوار بالايدى • أن السلام الذى ينتظرنا خارج الحدود يجب الا يتوقف هناك بل يجب أن يعم الداخل أيضا والا وجدنا انفسنا قد صدرنا السلام واستوردنا الحرب • ولن يحدث السلام فى الداخل طالما الصراع الحقيقى كامن وأصم ، بينما السلام ظاهر على مستوى الالفاظ فقط • ان المناداة بالسلام الاجتماعى لا تعنى أنه موجود بل بالعكس ، أنها تؤكد وجود صراع كامن مطلوب تحويله الى سلام • ولكى يتحول الصراع الكامن الى سلام فلابد بادئ ذى بدء أن نترجم هذا الصراع الى الفاظ ونخرجه الى الضوء كاعتراف واعى بوجوده •

الشرفاء لا يرددن الشعارات ولا يخافون الحقائق ولا يفرطون فى التفاؤل أو الطمأنة الكاذبة • انهم لا يخافون الالم أو يعجزون امامه ولكن يعملون من اجل السعادة وهم تحت نيره حاملينه على اكتافهم عن اخوانهم كما حمل المسيح عليه السلام عذابه نيابة عن البشرية • قد يرفع أحدهم للسماء وقد يموت منهم البعض ولكن أكثرهم سوف يستمرون بالضرورة يعملون بلا كلل ويتألمون بلا شكوى ، عن الآخرين •

حينما تكون الموارد محدودة والمطالب بلا حدود يشتد التناقض بين المعروض والمطلب · ولكى ينتهى هذا الصراع على مستوى المجتمع فان المتصارعين يجمدون الصراع فيما بينهم بالاستقرار على اطار ما لتوزيع الموارد · ونظرا لان هذا الاطار لهو وليد الصراع بينهم فانه بالضرورة خاضع لقوانين القوة حيث الاقوى يتغلب على الاضعف والمجتمع يقبل هذا الاستقرار كبديل لحالة الفوضى اللامحدودة التى كان يمكن أن تترتب على ترك الصراع يستمر بدون ضبط · الا أن الاستمرار فى الاستقرار يعنى بالضرورة أن هناك تجميد لحالة عدم الرضا بين الفئة التى حرمت من نصيبها فى صراع القوة مقابل حيازة تلك القوى لذلك النصيب · وحالة عدم الرضا بطبيعتها تعنى الرغبة فى تغيير حالة الاستقرار هذه بحيث تتوافر الفرصة لن لم يحصلوا على النصيب للذين كانوا يطلبونه أن يحصلوا على نصيب أكبر ·

والنظام المستقر يسمح بدرجة ما من هذا التغيير فى الانصبة على مستوى الاستثناء لا القاعدة · فالنظام قد يضحى بأفراده فى سبيل أن يبقى هو مستقرا · الا أن الرغبة بطبيعتها لا تشـــبع وتستمر ظاهرة عدم الرضاء والرغبة فى تغيير الاستقرار · واذا كانت هذه الرغبة فى التغيير تفوق قدرة النظام على استيعابه فان البديل المتبقى هو أن ينفجر الوضع بهدف تغيير النظام بأشمله ·

وعلى ذلك فان الانظمة الاجتماعية فى العالم المتحضر أخذت تستفيد من دروس التاريخ لكي تبقى على استقرارها بأن تستوعب التغيير باستمرار · وذلك كما أشرنا بأن يسمح النظام بالتغيير

المستمر فى الوجوه أو الافراد مع ابقاء النظام ذاته . بينما دول العالم الثالث التى لم تتمرس بالدرجة الكافية فى النظم السياسية والاجتماعية الحديثة ما زالت تتخبط بين الاســـتقرار القهـــرى والانفجارات المترتبة عليه الا انها أيضا أخذت فى الاستيعاب التدريجى لحقيقة الانفجارات والتى كثيرا ما كانت تدعى الثورة والتجديد والتقدم بينما يتضح باستمرار انها أيضا لا تكاد تكون الا تغييرا فى الوجوه أو الافراد .

ولذلك فهناك حاجة ملحة الآن فى دول العالم الثالث لدراسة انظمتها واسباب عدم استقرارها وكيفية تجنب الانفجارات التى تحدث دويا اكثر مما تحدث تغييرا .

ان الانفجارات تأتى حينما يتجاهل النظام مؤشرات عدم الرضا أو يحاول كبتها . واذا ما نجح فى ذلك فى الامد القصير نجده يقع تحت اغراء اتباع المزيد من تلك السياسة التى تقوم على التجاهل أو الكبت . بناء على المنطق القائل بأنه اذا كان الكبت مفيد فالمزيد منه أفيد . ولكن هناك حدود لاى سلاح ، وكل بداية لابد لها من نهاية . وبداية سياسية الكبت تتطور الى المزيد منها ثم الى نهاية لها . ولذلك فان المخرج المتبقى لاحداث تغيير فى انلظام هـــو بالانفجار .

وهنا يمكن أن يقوم العلم بدوره بأن يلقى الضوء على ظاهرة ما فى الواقع بأن يدرس جذورها واتجاه تطورها ويتنبأ باتجاها المستقبلى . وبفضل هذا ألوعى فان المجتمع يستطيع أن يختار اراديا أن يساير حركة التاريخ بدلا من انكارها أو محاولة تجميدها بالكبت . فاذا كان هدف النظام الاجتماعى أن يبقى فان الحقيقة العلمية تؤكد له أن البقاء المستقر مستحيل وان الامل الوحيد فى

البقاء هو بقبول التغيير واحتوائه • وبذلك يكون العلم قد يسر درجة من حرية الاختيار ، فالاختيار هو فى النهاية اختيار بين بدائل مطروحة وليس اختيار من فراغ •

فى مواجهة هذا الوضع فان النظام الاجتماعى المستنير ياخذ فى الاعتبار ضرورة التغيير فيحتويه بدلا من أن يتركه يحدث رغما عنه • وهنا يصبح اختياره المبنى على العلم فى اتجاه قبول التغيير وأحداثه •

يمكننا أن ندرس هذه الظاهرة فى اطار الاحداث الجـــارية فى مصر • فالنظام فى مصر يسعى للحفاظ على درجة من الاستقرار • ولكن الاستقرار المطلق كما اشرنا مستحيل • ولذلك فان الاستقرار النظام يرتبط بقدرته على تغيير ذاته • واذا جسدنا المجتمع فى أشخاص قياداته فاننا نستطيع أن نرى الاستقرار النسبى الذى يتمتع به رئيس الدولة ناتج عن قدرته على احداث التغيير فى اطار الهيكل الذى يعتمد عليه • وتارة يتغير الوزراء والقيادات الاخرى وتارة تتغير القيادات الماثلة • ان هذه التغييرات تعبر عن رغبة المجتمع فى التغيير وتمتصها •

الذين يخافون المبادرة بالتغيير ويسعون للاستقرار يرتبطون بالضرورة برئيس الدولة ويعتمدون عليه ولكن رئيس الدولة لابد وأن يعتمد على جهاز يوصل بينه وبين المجتمع • وذلك هو جهاز الدولة وبفضل هذا التفويض من جانبه لجهاز زالدولة فانه يتنازل عن قدر من سلطته لهذا الجهاز • ولكن رغبة هذا الجهـــاز هى الاستحواذ على المزيد من السلطة (فالرغبة تعنى وجود استمرارها واستمرارها يعنى تفاقمها اذ أن الرغبة لا يمكن أن تنتهى باشباعها بل تتولد بشكل جديد •

ويبدأ أولا بأن ينشىء جهازا سياسيا شعبيا وهو الحزب لكى يقوم بدور الرقابة على جهاز الحكومة علاوة على الجهاز الذى تكون بانتخاب المثلين للشعب وهو المجلس البرلمانى • وتنشأ الصراعات المحدودة بين الحكومة وبين المجلس وكذلك الحـــزب • والصراع كالعادة ينتهى بأن يسيطر الاقوى على الاضعف وتصبح الحكومة مرة أخرى بلا رقيب مما يؤدى الى التزايد فى تضخمها •

ويعبر عن تلك الحقيقة أحد القيادات الريفية عند انضمامه الى الحزب الجديد بنفس الحماس الذى انضم به الى ما سبق ذلك من أحزاب بأنه « يأكل على طبلية » فالموائد تتغير والداعين اليها يتغيرون ولكن دائما هو الذى يجلس عليها ويأكل • هذا هو جوهر النظام يؤكد وجوده من خلال هؤلاء بينما يقدم الفدية من القيادات كأفراد أو وجوده هنا وهناك •

الوجوه التى تغيرت فى هذه التغييرات الظاهرية لم تعدو أن تكون بعض الوجوه التقليدية والتى استمرت فترة طويلة فى الدائرة الضيقة حول قيادة الدولة • وما عدا ذلك فلم يتغير الكثير فان المبدأ الذى ساد هو التفاف التأييد حول السلطة • وما دامت السلطة موجودة فتأييدها موجود •

ولذلك فان القيادات الجديدة التى حلت محل القيادات القديمة لا تشعر بالاستقرار فى مكانها • فان التأييد الذى تناله ليس الا تعبيرا عن تأييد للسلطة وبالتالى فان تخلى قمة السلطة عنهـــا سوف يسحب هذا التأييد الشامل بأكمله منها ، كما حدث مع القيادات التى سبقتها • أضف الى ذلك أن التأييد للقيادات السابقة وان أصبح غير معلن فهو موجود • كما أن الذى أيد السلطة بالامس سوف يؤيدها اليوم ويؤيدها غدا • والتـــأييد

للقيادات الجديدة هو فى جوهره تأييد للسلطة ٠ والابقـــاء على هذا التأييد من قبل القيادات الجديدة مرتبط الى حد ما بقدرتها على الاستمرار فى خطى سلفها ٠

ان حالة عدم الاستقرار التى تعيشها القيادات الجديدة تؤدى الى بحثها عن مصادر أخرى غير ما ينالها تلقائيا من تأييد هـو أصلا مجرد تأييد للسلطة ٠ ولذلك فهى تسعى الى مد جذورها فى المجتمع بشكل أو آخر ٠٠ ولا تجد لها من حليف صادق الا هؤلاء الذين لا يؤيدون السلطة بهذه التلقائية ٠ حلفاء القيادات الجديدة اذا هم فى الحقيقة من لا يؤيدونها جهارا ٠ اذ ان تأييدهم جهارا لها سوف يعرضهم لفقدان ما ينعمون به من تأييد من القـــوى الاجتماعية المعارضة ٠ ومن جانب القيادات فانه سوف يحولها الى نطاق التعارض المباشر مع السلطة مما يفقدها مكانتها القيادية وبالتالى يفقدهم ذلك التأييد مهما كان قليل من داخل اجهزة السلطة ٠

ان هذا التحالف الغير معلن بين الوجوه الجديدة فى السلطة وبين القوى المعرضة لهو سلاح ذو حدين ٠ فهو بقدر ما يعطى للوجوه الجديدة مساندة حقيقية وليس مجرد مساندة للسلطة فهو يضيف الى قوتها الذاتية ٠ الا أنه فى ذات الوقت يجعلها قوة مهددة لغيرها وبالتالى معرضة للتصادم معها ٠ أن الوجوه الجديدة تجد نفسها فى صراع كامن مع كل اساليب العمل التقليدى ، ومع هذا فان هناك فى المقابل درجة من التعاون بين تلك الاطراف المتصارعة ٠ فقمة النظام الممثل فى رئيس الدولة يهمها تقوية الوجوه الجديدة حتى يستمر الاتصال بواسطتها ببقية الجماهير واستطلاع أحلامها

طالما هناك وعى بالتغيير وأمل فى أن يعاد ترتيب توزيع

الانصبة فالاوضاع مستقرة وليس هناك مزيد من الرغبـــة فى التغيير • المشكلة تعود حينما يستقر التغيير وتصبح الوجوه الجديدة التى جاءت لتحل محل الوجوه القديمة هى مجرد وجوه مختلفة ظاهريا • وتعود الرغبة فى التغيير مرة أخرى •

والحل الوسط الذى يؤمن الدولة هو أن تكون قيادة الوجوه الجديدة ذاتها ممن يدينون بالولاء له اساسا ويعتمدون فى وجودهم على تأييده لهم • أى ممن ليست لهم جذور فى القاعدة ولكن بما أن المطلوب أن يمدوا جذورهم فى القاعدة ليحققوا التواصل بين القمة والقاعدة ، فعلى الاقل يجب أن تكون لديهم الامكانية لهذا الامتداد • أى أن يبدأ وجودهم باختياره لهم ولكنه يتطور ليكون اختيارا من القاعدة • وبهـــذه الطريقة يتحقق له الاتصال مرة أخرى بالقاعدة اذ أن أعوانه قد حققوا الاتصـــال بالقاعدة دون أن يفقدوا الاتصـــال به أو ينعزلوا عنه ويعزلوا القاعدة عنه •

فالوضع فى مصر ودول العالم الثالث فى حاجة الى درجة ما من الاستقرار الذى يحتوى التغيير لكى يتسنى للتغيير أن يتحقق بدلا من أن يتحول الى حالة غليان مستمرة • ونظرا لغياب التراث السياسى المبنى على خبرة لممارسة الطويلة وما يصحب ذلك من مبادىء وقيم رسخت بغض النظر عن القـــوانين والاوامر فان الاستقرار فى تلك البلاد قلما يأخذ صورة الالتفاف حول مبدأ أو فلسفة بل يستند الى حد كبير على الفرد • هذا الفرد هو رئيس الدولة •

أنا رجل
أنت امرأة
أنا جدع
أنت خرع
أنا سيد
أنت خادم
أنا فوق
أنت تحت
أنا خير
أنت شر
أنا موجود
أنت ملغى
نعم أنا
أنت لا
لست أنا
أنت أنا
أنا أنا
أنا ..
أ .
لا .
أ . . نا
أنا .. وأنت
أنا .. وأنت
ملغى وموجود

خـــير وشر
فـوق وتحت

سيد وخادم

جدع وخرع

رجــل وامرأة

اختلفت الآراء حول قضية تولى المرأة المناصب القيـــادية والكثيرة منا يسترشد بالدين ليبقى على وضع المرأة الحالى ،وهو وضع المواطن من الدرجة الثانية الذى لا يحق له أن يتولى مناصب قيادية فيجيئون بأقوال الله سبحانه وتعالى وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التى تدل على نقصان المرأة عقلا ودينـــا عن الرجل ، أو عن مساواة شهادة الرجل بشهادة امرأتين ، وهكذا، وأخيرا يلجاون للعلم ليؤكدوا صحة استنتاجهم فيقولون أن المرأة تمر بدورات الحيض وما يصاحب ذلك من توترات نفسيـــة وجسدية تؤثر على حكمها على الامور ، الامر الذى يجعل شهادتها وحكمها على الامور تحت تأثير عواطفها دون عقلها . وقـــــد يسترشد أيضا بطبيعة الحمل والولادة مما يؤدى ذلك الى تقييد فى موقف المرأة من الحياة والقيم . فللمرأة التى تحمل وتنجب بحكم الطبيعة البيولوجية ، لابد وأن يكن اهتمامها بالعوامـــل التى تعطيها وتعطى طفلها أو جنينها الطمأنينة الكاملة لكى يبدأ وجوده فى جو من الامان . فالطفل أو الجنين فى هذه المرحلة يهمه فى المقام الاول الحصول على الغذاء والامان من المخاطر ، ولذلك فقد نجد أو نستنتج من هذا الوضع أن المرأة بطبيعتها فى هذه الاحوال سوف تعطى أولوية للقيم التى تمهد لها الحصول على تلك الضمانات المـادية المباشرة ، وقد نستنتج من ذلك علميا أن المرأة تفتقر الى بعد النظر ، فالذى يهمها .

فى المقام الاول هـــو هذا الجنين والمولود الذى تعيه فى دائرتها الضيقة ، ولا يهمها مصير الاجيـــال ككل ولا مصـــير المجتمـع ، فهى بالتالى سوف تميل الى الحكم على الامور من وجهـــة نظر ذاتية ضيقة ٠

ولكننا استمرارا لهـــذا المنطا ق العلمى سوف نبحث عن موضوعيـة هذه الاستنتاجات ، فالعلم أيضا يقـــول لنا فى الفروق بين المرأة والرجل ليست بكل هذه القطيعة أو الجـــوهرية التى نتصورها اذ أن هورمون الذكر وهورمون الانثى لا يفترقان كثيرا فى تكوينها الكيميائى ٠ علاوة على ذلك فان كلا من الذكر والانثى يفرز هورمون الجنس الآخر ،فالرجل يفرز بعض الهرمونات الانثوية والمرأة تفرز بعض الهرمونات الذكرية ، علاوة على ذلك فان الفروق بين الجنسين لا تتضح كثيرا الا فى فترة الانجاب وهى بين سن المراهقة وبين سن اليأس (عند المرأة) وعدا ذلك فالمرأة لا تختلف كثيرا عن الرجل (الذى يمتد سن اليأس عنده لينتهى بطريقة تدريجية كما سـوف نشاهد) : فقبل سن المراهقة تكون الفروق بين الجنسين غير واضحة أو بارزة،فالخصائص الفسيولوجية لدى الفتى أو الفتاة قريبة من بعضها وظيفيا وان كانت تختلف تشريحيا وكذلك بعد سن اليأس ، أو بالاصح بعد فترة الانجاب، لدى كل من الرجل والمرأة ، فاننا نجـد الخصائص النفسيـــة والجسدية على السواء تعود فتقترب ، اذ على المستوى الجسدى فنجد أن المرأة يزداد صوتها خشونة ويبدأ شعرها فى التســاقط وتقاطيع وجها وتكوين جسدها تقترب من الرجل ، وكذلك نجد الرجل بعد هذا السن يقل صوته خشونة وشعر وجهه يقـل غزارة وجسده يزداد اقترابا من تكوين جسد المرأة ٠ أما من الناحيــة النفسية فاننا كذلك نجد اقترابا بين الجنسين فالمرأة تزداد اهتماما بالمجتمع ككل وتخرج خارج دائرة الاسرة الضيقة ، وهى تتجه

بنشاطها نحو الانتاج العلمى والاقتصادى وتزداد اهتماما بالسياسة والحياة العامة ، بينما نجد الرجل فى هذا السن من الناحية والنفسية يميل الى العمل البناء أو الخلاق الذى يعبد الى الاذهان فكرة حسد الرحم وحسد الثدى عند الرجل وهو الحسد الذى يفسر ميل الرجل نحو الاعمال الفنية أو الخلاقة والبناءة كما لو كان يحسد المرأة على قدرتها على الانجاب . فالرجل فى هذا السن يزداد دماثة ويزداد قدرة على التحمل وتقل عنده العدوانية ويميل الى التسامح والغفران وهى صفات أقرب الى صفات الامومة ولا يخفى عن الذكر بطبيعة الحال هذه الحالات المرضية التى يكون الفرق بين الرجل والمرأة بسيطا لدرجة امكان تحويل الرجل الى امرأة والعكس بواسطة العمليات الجراحية والعقاقير .

هكذا يقول لنا العلم أن هناك فروق فسيولوجية بين الرجل والمرأة ولكنها على أية حال أولا ليست فروق قاطعة ، ولكن هناك درجات ، أى أنها فروق نسبية وثانيا ليست فروق جوهرية واذا أضفنا الى ذلك أنه يجب التمييز بين الذكورة والانوثة كصفات بيولوجية وبين الصفات الاجتماعية لدور الرجل والمرأة أى ما يوصف بالـ

(لعلنا نستطيع أن نترجمها الى أنثوية وذكرية) فالفروق البيولوجية موجودة وكما ذكرنا فهى نسبية وهى ليست جوهرية وكذلك الفروق الاجتماعية موجودة ولعلها منبثقة من الفروق البيولوجية الا أننا يجب أن نأخذ فى الاعتبار العوامل الاخرى التى تؤثر على الادوار الاجتماعية . فالادوار الاجتماعية وان كانت تتأثر بالفروق البيولوجية والفسيولوجية الا أنها تخضع على الاغلب للمؤثرات الحضارية والتاريخية لتطور المجتمعات المختلفة . واذا استطعنا أن نقول أن صفات الذكورة والانوثة البيولوجية موروثة فاننا لا نستطيع أن نؤكد مثل هذه الفروق على

مستوى الوظائف أو الادوار الاجتماعية ، وهى صـــفات الانثوية والذكورية .فان هذه الصفات ليست بالضرورة مدروسة أو نهائية ولكنها قابلة للتغيير من مجتمع الى مجتمع ومن زمان الى زمان .وعلى ذلك يجب علينا أن نفرق بين تلك الصفات الاجتماعية وبين الافتراضات الاساسية التى نستنتجها من الصفـــات البيولوجية . فاذا كانت الصفات البيولوجية كما ذكرنا نسبية ومطاطة لدرجة أن نجد الفـــرق بين امرأة وامرأة يكاد يكون مثـــل الفرق بين رجـــــل وامرأة ، فما بال الصفات الاجتماعية التى ترتبط بدور الذكروالانثى أى الصفات الانثوية والذكرية ، فليس الاجـــدر فى هذه الحالة أن تكون صفات مطاطة ونسبية ؟ فهناك أمثلة كثيرة على تقـارب الطباع بين المرأة والرجل واختلاف الطباع بين المرأة والمرأة أو الرجل والرجل بقـدر يكاد يصل أو يفوق الفرق بين الرجـــل والمرأة . وهذه الصفات الانثوية والذكورية تكاد تتطابق مع صفات السيطرة والخضوع فى المجتمع الواحد. فاذا كان المجتمـــع يسيطر عليـــه الرجال فانهم يضيفون على الصفات الذكرية القيم الموجبة فالرجولة أفضـــل من الانوثة والسيطرة أفضل من الخضـــوع والقـــوة والعدوان افضل من الضعف والاستسلام والمستغل (بكسر الغين) أفضـــــل من المستغل (بفتح الغين) والمستعمر (بكسر الميم) أفضـــل من المستعمر (بفتح الميم) والفاعـــل أفضـــــل من المفعل به وهكذا . وبما أن العنصر المسيطر فى أغلب المجتمعـــات من الرجل فان القيم الموجبة تضفى على الذكورة دوننا عن الانوثة أى أن المجتمع يربط ما بين القيم الموجبة والصاعدة وبين الذكورة كصفات اجتماعية وبين الذكورة بالمعنى البيولوجى كما يربط بين القيم الهابطة وبين الانثوية كصفـــات اجتماعية وبين الانوثة بالمعنى البيولوجى . وبعد أن يفعل الرجل ذلك فانه ابقـــاء على موقفه المتسلط والمستغل يصر على اضفاء هذه القيم الموجبـــة والصاعدة على جنسه دوناً عن الجنس الآخر هو بذلك يســـاهم

ى أخطر نوع من أنواع التفرقة العنصرية فيحول الرجل الى مواطن من الدرجة الاولى والمرأة الى مواطن من الدرجة الثانية وهـــو يتشبث بهذا الموقع بشتى الطرق فتارة يلجأ الى العلوم البيولوجية والفسيولوجية وتارة الى التاريخ وتارة الى الدين والتقاليد ليؤيد استمراره فى ابقاء الاوضـــاع كما هى لكي يستمر فى وضـــعه المستغـــل والتسلط . الا أن الر جل ينسى فى هـــذه الحالة أن المستغل أيضا يدفع ثمن استغلاله وأن امتيازاته لاتخلو منالنواقص فالمسيطر أيضا يعانى وليس فقط المسيطر عليه والجالس على قمة الهرم انما يجلس وهو يعلم أن من هم فى القاعدة انما يتربصون به ويحقدون عليه ويضمرون له النيــة لخلعه من منصبه . أو لعل وجوده فى منصبه لا يخلو من الالم فالضعيف له وسائله الخلفية للانتقام من القوى ، حتى ولو وصل به الامر الى درجة الانتحار فاذا انتحر على أســوأ الفروض فانه يسلب الـــوى امكانيــة ممارسة قوته اذ أن القوى قوى لانه يجد من يمارس قوته عليه ، والقوى قوى يفضل وجود الضعيف . ومع ازدياد وعى الرجـــل ومع افلاس هذا المنطق الذى يفرق بين طرفى الصراع ، بين القوى والضعيف ، فان الحاجة الى التطور نحو تحذير الطرفين من التمسك بالواقع المناقض للآخر أمـــلا فى الوصول الى علاقة ندية لهـــو الامل المتبقى للخروج من هـــذا الصراع المؤلم الذى يجعـــــل القوى متمسك بوضعه المسيطر وهو خائف من انتقـــام الضعيف منه والذى يجعل الضعيف ناقما على سيطرة القـــوى عليه . إن التحرر فعلا وان كان يبدو من الظاهر مطلب من مطالب الضعفاء الا أنه فى الحقيقة تحرر من أجل الاقوياء أيضا فالتحرر الحقيقى هو التحرر من طبيعة علاقة السيطرة وليس مجرد تحرر من سيطرة أحد الاطراف على الآخر . لابد أن نتساءل لمصلحة من تبقى على الاوضاع التى تحول نصف سكان العالم الى مواطنين من الدرجة الثانية محكوم عليهم بالضعف والاستغلال والسيطرة من جانب

الرجل ؟ فلا المرأة تتحمل هذا الوضع ولا الرجل فى بعـــد نظره يتحمله فالطرفين يعانيان من هذا الوضع على السواء ، وقد تبـدو المصلحة الظاهرية ضـــد مصالح الرجل الذى يتصور بجلوسه على عرش القوة والسيطرة انه فى المكان الافضل ولكن الرجـــل الواعى يعرف أن هذا غير حقيقى وانه لا مصلحة له فى البقاء فى هذا الوضع أن تنازله فى هذه الحالة ليس تنازلا ولا تعطفا وانماهومطلب أساسى من أجل تحرره هو شخصيا فهو لا يطلب تحرير المرأة من أجل المرأة ولا تفضلا عليها ولكنه يطلبه لانه حق له ٠ومن هنا ولعلنا نستطيع أن نضع على جانب هذه الحجج التفضيلية التى تسعى لايجاد المبررات لابقاء الاوضاع كما هى فنحن نعرف أن الحجج التبريرية انما هى حجج تبريرية مهما بدت ظاهريا كمـا لو كانت ترتكن الى أقوال سماوية نحن نعلم أن القرآن منذنزولهلميطبقأبدا بحذافيره به أنه لم يكن قابل للتطبيق بحذافيره لسبب بسيطوهوأنه نزل على أجزاء ونزل على حسب مقتضيات الظروف فى لحظة النزول وهو لم يتزل كتابا كاملا فى يوم واحد وانما نزل مجزءا متلائما مع الاوضاع الاجتماعية التاريخية فى الوقت الذى نزل فيه علاوةعلى انه نزل باللغة السائدة فى ذلك الوقت وفى ذلك المـــكان وهو الجـزيرة العربية فى عصر فجر الاسلام ونهاية الجاهلية فاذا لم يكن نزوله مكتملا ومفاجئا كما أنه لم يكن نزوله منفصلا عن الظروف التى نزل فيها علاوة على أنه لم يحدث أبدا على مر التـــاريخ أن طبق بـكل حذافيره وتفاصيله بل أنه لم يطبق بحذافيره وتفاصيله أثناء نزوله فالخمر مثلا لم يحرم الا بعد نزول الآيات التى تنهى عنه رغم أنه كان هناك اسلاما وقرآنا ولم يكن الخمر محرما ٠ بل ان التاريخ لم يشهد منذ فجر الاسلام أى محاولة ناجحة لتطبيق القرآن بأى درجة تقارب تطبيقه فى عصر فجر الاســـلام فكل ما شـاهدناه هو هذه المحاولات التبريرية لابقاء الاوضاع على ما هى عليه من جانب فى مقابل الدعوات المختلفة لتغيير هذه الاوضاع ٠ وفى كلتا الحالتين

كان القرآن هو الملجأ الذى يلجأ اليه صاحب المصلحة من الطرفين :
الطرف الاول وهو الذى يريد أن يبقى على الاوضاع كماهىكان يلجأ
الى تلك الفقرات فى القرآن أو الاحاديث التى تبرر ابقاء الوضع على
ما هو عليه بينما الطرف الثانى الذى كان يسعى دائما الى التغيير
والتطور كان يلجأ الى تلك الفقرات فى القرآن والاحاديث التى تبرر
له موقفه والخلافات فى تفسير القرآن كانت تصل الى درجة التفكير
المتبادل بين المفسرين ولعله من حظ الاسلام أنه لم يقنن فى حضارته
أى مركز مرموق أو مميز لكهنوت يفرض تفسيراته على بقية
المسلمين بل انه وضع للعبد مكانته فأعطاه حق التفسير والاجتهاد
ولم يضعه تحت وصاية أى فئة أو أقلية ولذلك يجوز لنا بجانب
النقاش حول موقف الاسلام من هذه القضية أو تلك أن نضع
فى الاعتبار ما هو الدافع وراء اتخاذ موقف ما ولمصلحة من ندافع عن
موقف بعينه ، أى أننا يجب أن نسأل القائل بأن الاسلاميقولكذا أو
ذاك لماذا يختار هو منكل ماقاله الاسلام هذه الاقوالبعينهاولمصلحة
أى موقف يختار هذه التفسيرات ؟ أى يجب أن نسأل دائما عن
الدوافع الذاتية والدوافع الاجتماعية التى تجعل صاحب الرأى يأخذ
هذا التبرير أو ذاك . ولعلنا نجد الاجابة فى أنه هناك فريقين فى
الرأى ازاء القضايا الاجتماعية الراهنة على اختلافها ففريق يرى
ابقاء الاوضاع على ما هى عليه وفريق آخر يرى وجوب تغييرها
الفريق الاول بطبيعة الحال يعتقد أن الابقاء على الاوضاع كما هى
عليه هو الافضل لانه فى المقام الاول أفضل بالنسبة له أو للفئة التى
يمثلها وليس بالضرورة لانه أفضل بمقاييس قاطعة فالتفضيلفىهذه
الحالات هو موقف ذاتى من قبل صاحب الرأى ، بينما الفريقالثانى
الذى يطلب التغيير أيضا بدافع عن مصلحة ذاتية أو اجتماعية
يمثلها فهو من المحرومين الذين يعانون من ابقاء الاوضاع كما هى
عليه ويطلب التغيير لكى تزداد حصته فى الامتيازات الاجتماعية
التى يحرم منها . وقد نخرج من هذا المنطق أن كلا الموقفين له حق

وانه لا أفضلين لموقف على الآخر وانه بالتالى من حق كل صاحب
موقف أن يتمسك بموقفه وانه لا فرق فى القيمة بين موقف وموقف اى
أن المدافع عن ابقاء الاوضاع كما هى عليه له الحق مثلما المدافع
عن تغيير الاوضاع له حق ، الا أننا يجب هنا أن ننتبه الى أن الحياة فى
استمرار وتغيير وتطور وان دوام الحال من المحال وأن التغيير هو
من طبيعة الوجود وطبيعة الحياة نفسها وبالتالى فسواء أردنا أو لم
نرد فان المنادين بالتغيير هم أصحاب الغلبة فى النهاية وهم المنتصرون
بينما المتمسكين بابقاء الاوضاع على ماهى عليه هم الخاسرون فى
الامد الطويل رغم كونهم منتصورين اليوم ولعلنا فى النهاية لا نجد
أنفسنا الا مخيرين بين أن نكون مع المبقين على الاوضاع كذا هى
فننتصر فى الامد القصير وان كنا نحكم على أنفسنا بالهزيمـــة فى
الامد الطويل . واما أن نكون مع المنادين بالتغيير فننهزم فى الامد
القصير وننتصر فى الامد الطويل ولعل الاختلاف هنا هو فى مدى
قدرتنا على تحمل الالم فالذين لا يتحملون ألم الهزيمة سوف يتعجلون
فى الانتظار والتسلق على اكتاف المنتصرين الحاليين ، أولئك هم
الاغلبية ، الا أنهم وان كانوا أغلبية انما هم فى الحقيقة يمثلون تلك
الاقلية المهزومة فهم يلتصقون بالمنتصرين لانهم لا يثقون فى قوتهم
كما أنهم لا يثقون فى حتمية نصر المهزومين الذين ينادون بتغيير
الاوضاع القائمة ، الا أن فئة المنادين بالتغيير ، وهم أقلية ظاهريا ،
انما هى الفئة القادرة على المثابرة والصبر فليس لها مصلحة فى ابقاء
الاوضاع كما هى وليس لديها أى شىء تخسره أكثر مما تخسره الآن،
فهى الاقدر على الصبر والاستمرار من الفئة المقابلة المتمسكة ببقاء
الاوضاع كما هى وهى أيضا بحكم قدرتها على الصبر والتأجيل تملك
بعد الزمان فى صالحها وافـــرادها وان كانوا منهزمين فى الوقت
الحالى الا أنهم أصحاب النصر فى الامد الطويل ومع ازدياد قوتهم
وتضخمها فانهم حين يصلون الى حجم ما فى القـــوة ازاء القــوة
المقابلة لهم من المنتفعين بالاوضاع القائمة ، حينما يصلون الى هذا

الحجم ، سوف يكتسبون ثقة الغالبية التى انحازت الى تلك القلة المدافعة عن الاوضاع القائمة بحكم اعتقادها أن تلك الفئة هى الاقوى فهذه الغالبية وهى فى جوهرها تمثل الاقلية الضعيفـــة حينما ترى الاقلية الضعيفة وهى تقوى سوف تنحاز اليها بطريقة شبه مفاجئة وفى هذه الحالة يحدث التحول وقد يكون تحولا مفاجئا فى صـــورة ثورة أو تحولا تدريجيا أو كلاهما بمعنى أن يكون التحول تدريجى غير مرئى الى أن يصل الى النقطة الحاسمة الذى يكون فيه تحولا مفاجئا وقـــد نشهـــد فى قوانين الطبيعة أوضاعا متشابهة فقطعة الحديد حينما نريد أن نحولها الى مغناطيس فاننا نغير من اتجاه الذرات بحيث تتجه من الشمال الى الجنوب ونستطيع أن نفعـــل ذلك بوسائل مختلفة والذى نشاهده أنه عندما ننجح فىتحويلنسبة ما من تلك الذرات فى الاتجاه المطلوب أى الشمال والجنوب وهى نسبة تقترب من حوالى العشرة فى المئة فان بقية القطعة الحديدية تتحول فى ذلك الاتجاه وكذلك فى حالة الانفجار الذرى فان التحول يستمر تدريجيا حتى يصل الى النقطة الحاسمة أو مايعرفبالحجم الحرج وحين نصـــل الى هذه النقطة فان تحول بقية الجسم يحدث بطريقة سريعة ٠

ملخص القـــول أن وضـــع الرجـــل والمرأة فى الـكيان الاجتماعى انما هو يخضع فى المقام الاول لقوانين التغيير والاستمرار فالاستمرار على الاوضاع الراهنة يبدو أنه فى خدمة فئة دون فئة علاوة على أنه يتعارض مع مطالب فئة دون الفئة الاخرى والمطالبة بالتغيير لهو جزء طبيعى من وجود الفئة المغلوبة على أمرها كما أنه جزء طبيعى من طبيعة الحياة نفسها وعلى هذا فان المواقف الفكرية يجب أن تقاس بين هذين النقيضين : اما الابقاء على الاوضاع كما هى واما المطالبة بالتغيير ٠ وقبل أن ننزلق فى الحوارات الفكرية المجردة والسفسطة الفلسفية يجب علينا أن نحدد مواقفنا الفعلية من

القضايا الاجتماعية ومن قضايا التغيير فى مقابل الاستقرار • وعلى المستوى الدينى فالقضية لم تعد ماذا يقول الاسلام بقدرماهىقضية لماذا يقول من يقول ان الاسلام يقول ما يقول ؟ ان القضية هىالىأى موقف فعلى من القضايا الاجتماعيـــة الراهنة ينتمى قائل القول وصاحب الرأى ؟ وفى النهاية تبقي قضية أخرى معلقة وهى قضية الانسجام بين ما نقول وما نشعر وما نفعل والسؤال المطروح على من يقـــول ما يقول هو هل يقول ما يفعله ويحســـه ؟ أو هـــو يقول فى الظاهر مالا يشعره فى قلبه ومالا يفعله بيده ؟ وليســـت القضية هنا مجرد قضية قيمة وهى قيمة النفاق بقدر ماهى قضية انسجاموتكامل نفسى • فالانسان المنسجم مع نفسه ومع بيئتههو أيضا انسان منسجم مع أجزاء نفسه فهو يقول ما يشـــعر ويفعل ما يقول وهو انسان صاحب موقف ازاء القضايا العقلية كما هو صاحب رأى ينبثق من احساسه ومعايشته لهذا الموقف فاذا كان منسجما مع نفسه فانه يجنى ثمار ذلك وهو الاحساس بالتكامل والصحةكما أنه يجنى الثمار من حيثعلاقتهبالبيئةالمحيطةفالانسان المنسجم مع ذاته سوف ينسجم بالضرورة مع بيئته بل أن هذا الانسان لا محالة هو المنصور لانه نجح القضـــاء على عدوه الرئيسى وهو العدو الداخلى فى صورة الانشقاق الذىيجعل من جزء من نفسه عدوا للجزء الآخر فان عقله وقلبه ويده يعملون فى تجانس وبالتالى فان الطاقة التى تتولد من هذا الانسجام هى طاقة لاحدود لها بل لعلها جوهر الايمان بعينه وبهذا المعنى فان المؤمن فعـــلا يستطيع ان يهزز الجبال بايمانه •

ان مع الصـــعود ســـقوطا
دراســـة دينامية نفسية جماعية لقصة
« سقوط الامبراطورية الرومانية »

« سقوط الامبراطورية الرومانية » قد تبدو لاول وهلة مجرد قصة سينمائية من قصص مغامرات التاريخ وحروبها · الا أن بقية المعانى سرعان ما تتجلى ربما بعد انتهاء المشاهدة بفترة ·

الامبراطورية حينما وصلت ذروتها واستقرت فقدت القدرةعلى التغيير · كانت تسعى لان تستمر كما هى : وجود الرومان على قمة الامتيازات الاجتماعية على حساب بقية الشعوب التى يحكمونها · فاذا كانت الحضارة الرومانية قد وصلت الى ما وصلت اليه من هيمنة على العالم (فى حدود وعيهم آنذاك بحدود العالم) بفضل قوتها العسكرية فان بقائها هناك فى مكانتها مرتبطبامكانيةاعطائها بديل للقوة العسكرية تجعل تلك الشعوب تقبل سيطرتها ·

الا أن القوة العسكرية لا تستطيع الا أن تؤكد وجودها فترفض بالتالى البديل · وعليه فان ولاء الشعوب الاخرى لهذا النظام يبدأ فى الاهتزاز فتقوم حركات للتحرر تأخذ صورة التمرد والعصيان والاستقلال وغيرذلك : وهذابدوره يؤدىالىضرورة قهر هذه الحركات بمزيد من القوة العسكرية وهكذا فى حلقة مفرغة ·

ويستمر الجدل بين القوة العسكرية والبديل المطلوب بحيث يتحول الصراع الخارجى بين الرومان والرافضون لهم الى صراع

داخلى بين الرومان وبعضهم ، أحدهم طرف يمثل القوة العسكرية والآخر طرف يمثل البديل . وبما أن البديل هو الجديد علاوةعلىأنه بالطبيعة غير عسكرى فهو بالضرورة الاضـعف ماديا . وما دام الصراع بين طرفين يؤدى الى سيطرة القوى ماديا على الضعيف فى الامد القصير . فيزداد القوى قوة بينما يزداد الضعيف تمردا ، هذا هو ما حدث للاتجاه العسكرى .

الا أن للقوة حدود ، اذ أن القوة بالمفهوم الجدلى هى ما ينافى الضعف وتنتهى حدودها عنده . فلكى تستمر القوة لابد أن يستمر الضعف . ولذلك كان لابد لهذه الحركات التحررية أن تزداد كما كان لابد للاتجاه البديل للسيطرة العسكرية الرومانية داخليا أن يزداد .

ما دامت القوة العسكرية البحتة غير قادرة على اخضـــاع الشعوب فلابد من بديل لكى تبقى تلك الشعوب خاضعة . لقد نادى الحكيم اليونانى بذلك . أننا لا نريد تحرير العبيد لمجرد الاخـلاق ولكن لانه قد ثبت أن العبيد أقل انتاجية من الاحرار . ولذلك فيجب أن نكف عن قمع الشعوب واستعبادها . اذ أننا مهما نجحنا فى القضاء على المعارضين كأفراد أو كيانات فلن ننجح فى قهر المعارضة كظاهرة .

العسكريين لا يقبلون هذا المنطق بسهولة . اذ أن وجودهم مرتبط بوجود حالة الحرب المستمرة . ولكن وجود الرومان كفئة مميزة أصبح يهدده وجود حالة الحرب المستمرة هذه ، فقد كانت تستنفذ طاقتها . ولذلك فلا مفر من أن ينشـأ هذا التناقض بين العسكريين وممثلى البديل .

وبما أن قانون الصراع هو انتصار الاقوى فان الاتجاه البديل لا يقبل الا حين يترنح النظام العسكرى ذاته ، أى يصبح البديل هو الاقوى حينما تضعف القوة العسكرية · هكذا كان القيصر ماركوس أوريليوس هو الممثل القوى لهذا الاتجاه البديل · وبما أنه أصبح الاقوى فانه بالضرورة يفرض وجوده على الاتجاه العسكرى ·

ومن هنا فان المعارضة العسكرية تأخذ فى التفاقم · بل أنها تجسدت حتى أصبحت تسيطر على أسرته من الداخل فقد تشكل ابنه ووريثه كومودوس على الفكم العسكرية وأصبح هو الممثل لها ·

الا أن أوريليوس الذى كان يمثـــل الاتجاه المضـــاد أيقن أن تفاقم هذا الاتجاه العسكرى يعنى القضاء على الاتجاه الذى يمثله هو · ربما أنه الآن قد تقدم فى السن وتهاوى جسده فانه ينتظر الموت · وسبيله الى تجاوز الموت الى الابوية أن يتوحد مع التيار الذى ينتظر له البقاء · وهو قد أتى لان القوة العسكرية قد فشلت ويعلم أن القوة العسكرية أن أتت مرة أخرى فسوف تفشل بالتالى ·

النجاح الفورى يستدعى أن يتوحد أوريليوس مع الاتجـــاه العسكرى الذى كان يسعى للاحلال محله ولكنه كما أشرنا كان يمثل التيار المضاد الذى ينتمى اليه وكان يعلم أن هذا التيار قد أتى استجابة لفشل القوة العسكرية فى حفظ وجود الحضارة الرومانية · ولذلك فانه حيثما اقترب من الموت أراد أن ينقذ الموقف فى اللحظة الاخيرة فيولى الخلافة « لابنه » الآخر تريفيوس · ولما باح بهذه الرغبة أمام الاخير فى وجود ابنته لوسيـــلا والتى كان يحبهـــا تريفيوس أصاب تريفيوس القلق · فكيف له أن يحل محل «أخيه» وصديقه كومودوس · ولم يستطع أن يتحمل الا يبوح لكومودوس بأنه استجاب ولو بعدم الرفض لهذا الاغراء · ان كومودوس كان يعى

صراع السلطة ولذلك أيقن أنه لابد من أن يواجه تريفيوس ·وافتعل معه معركة سلطة حول حكم بالاعدام كان ينفذه تريفيوس فى بعض العسكريين المتهمين بالخيانة · وكان يتحدى كومودوس بطبيعة الحال مدفوعا أو مسنودا بالقوى العسكرية التى لم تكن تريد الا أن تبقى على امتيازاتها · وحسم الصراع بأن دبركومودوس ومعاونيه مقتل أباه بالسم دون أن يعلم أحد عن ذلك وقبل أن ينقل الرجل العجوز الخلافة الى تريفيوس بصورة علنية وشرعية · ولما تمت المؤامرة لم يستطيع أحد أن يقدم أى دليل مادى على رغبة الاب فى حرمان كومودوس من الولاية · اذ أن شهادة كل من تريفيوس ولوسيلا مشكوك فيها ، اذ أنهما أصحاب مصلحةفىتعديل الوصية· ولذلك أيقن تريفيوس أنه لابد أن يبايع كومودوس حفاظا علىوحدة الامبراطورية ·

لقد أعلن كومودوس أنه سأل الآلهة أن تقتله اذا لم يكن فى تولية القيادة حكمة وبما أنه مازال حى يرزق فلابد أن الآلهة تريده· وهكذا أخذ يزداد فى تسلطه حتى وصل الى ذروتها وإله نفسه فأصبح فى تناقض مع الواقع · لقد نسى النصيحة التى تلقاها فى بداية توليه وهى أنه بشر ·

ومن خلال هذا التناقض مع الواقع أصبح يواجه الحركات المعارضة له وهى تزداد فى تفاقمها · فهو لم يأخذ بحكمة الحكيم الرومانى تلميذ أبيه واستاذ تريفيوس أن المدرس الذىيفشلبصورة متكررة فى تعليم تلميذه شىء لابد أن يتوقف عن اتهام التلميذ ويبدأ فى سؤاله نفسه عن الخطأ فى طريقة تعليمية · وعلى ذلك فكان لابد للرومان حينما فشلوا فى وضع حد لحركات التحرر أن يسألوا

أنفسهم عما اذا كان الخطأ هو فى كيفية تعاملهم مع هذا التحرر ٠ وكان البديل الذى يقدمه الحكيم اليونانى هو فى جوهره ما كان يمثله الاب ماركوس أوريليوس : أن نقبل المعارضة فى داخـــل صفوفنا وأن نحتويها بدلا من الاستمرار فى قمعها ٠ فلابد أن نعطى للبربرية حريتهم ومساواتهم بالمواطن الرومانى ٠

كانت وجهة النظر العسكرية المتمثلة فى كومودوس هى أنه مناقض لابيه وبما أن الآلهة لم تقتله وهو مازال حيا وأصبح قيصرا فلابد أنه على حق ٠ ولذلك كان لابد له أن يستمر فى تأكيد مايمثله ٠ بالنسبة له فان الواقع هو المنطقى والتاريخى هو المثالى وليس فى الامكان أبدع مما هو كائن ٠

وعلى هذا الاساس انتصر كومودوس فى صراع الخـــلافة حينما قتل أباموانتصر حينما كسب ولاء المعارضةباحتواءتريفيوس وذلك باعطائه المناصب المتزايدة فى سلطتها ثم سحبها منه فى آخر لحظة عندما أوشكت تمثل تهديدا من جانب تريفيوس له ٠ انه كان ينمىتريفيوس لانه كان يضمن ولاءه له،فقد سبقأنتنازلتريفيوس عن الصراع معه فى سبيل الابقاء على تماسك الرومان وأكد أنه يفضل مصلحة روما على مصلحته الذاتية ٠ ولذلك فانه لن يحول «قيصر الذى لاشك فيه» الىقيصرمشكوكفيه بما أنذلكيهددتماسك روما ٠ لقد كان يضمن ذلك الى أن أصبح احتياجه المتزايد لمساندة تريفيوس يجعله يفرضه فى المزيد من السلطات وبالتالى السيطرة على القوة العسكرية ٠ وحينما ذاق تريفيوس الحكيم المتشبعبحكمة أوريليوس نشـــوة القوة العسكرية لم يتوانى عن التمســـك بها

وتضخيمها • ولم يعد أمامه الا أن يحل محل كومودوس • الا أن كومودوس بصفته الممثل الاصلى للقوة العسكرية كان يعلم من أين يعيد ولاءها له • فجمع كل ما استطاع من ذهب ومجوهرات وذهب بها الى الجنود المنتظرين خارج أسوار المدينة ايذانا بالانقضاض عليها لخلعه واحلال تريفيوس محله فالجنــــود قد سئموا الحرب ويريدون جنى ثمارها بأسرع صورة وها هو ذا كومودوس يقدمها لهم بصورة مباشرة وملموسة • فكيف يرفضها مقابل وعود يقدمها لهم تريفيوس بأن يحقق العدالة • لقد فضلوا فورا المكسب المباشر وحولوا ولاءهم الى كومودوس • وتركوا تريفيوس يواجه حــــكم الاعدام حرقا • ولم يبق مع تريفيوس الا أحد القواد والذى قتله الآخر ، علاوة على حبيبته لوسيلا شقيقة كومودوس •

لقد نسى تريفيوس أن العسكريين لم ينضموا بكاملهم اليه الا حينما واجهوا خطر تحالف الفرس والارمن وذلك وقت أن جاءهم تريفيوس ليحتوى تمردهم ضد القيصر كومودوس وحفاظا على وحدة روما • هذا بينما لم ينسى أيضا أنه هو الآخر كان يريد التخلص من كومودوس • فكيف له أن يدين من كانوا يتمنون ما يتمناه وهو التخلص من كومودوس • لقد تعاونت شقيقة كومودوس وزوجها الذى فرضه عليها والدها على حساب تريفيوس وهو ملك أرمينيا أملا منه أن يحتفظ بولاة أرمينيا ، فى اقامة التحالف بين الارمن وبعض الرومان المتمردين على كومودوس • وكان تريفيوس نفسه يرغب فى مثل هذا التعاون : كان يأمل أن يكون هو زوج لوسيلا وأن يدين العسكرى بنيله بالولاء بدلا من ولاءهم لكومودوس ، ولذلك قرر أن يقاتلهم ، فانه بقتالهم سوف يحظى على المزيد من السلطة المفوضة

له من قبل كومودوس علاوة على أنه سوف يجرد لوسيلا من ارتباطها بملك أرمينيا · ولكن لما اتضح غدر زوج لوسيلا الملك الارمينى بتحالفه مع الفرس وواجه الرومان المنشقين على أنفسهم انهم أمام عدو مشترك ازداد لدى تريفيوس الدافع أن يقاتل الارمن والفرس · فسوف يحصل على رضاء روما دون أن يعتدى على أبنائها · وفى ذات الوقت فان احكام سيطرته على العسكريين سوف تجعله فى موضع امكانية التخلص من كومودوس دون أن يشق الرومان على أنفسهم · فانه بهذا يحقق رغبة أبيه فى الحفاظ على روما وفى التخلص من كومودوس ·

لكن أوريليوس كان قد تجاهل أن كومودوس أيضا ابنه · وكان كومودوس يتألم وهو يسأل أبيه فى لحظة موته عما دفعه لانكاره ان رغبة الاب لم تكن فقط هى التى أعلنها قبيل وفاته بأن يحل تريفيوس محل كومودوس ، بل أن هذه الرغبة لم تكن الا وليدة سنه المتقدم واحساسه باقتراب الموت · فقد كان الواقع يؤكد رغبته السابقة وهى أن يخلفه كومودوس ·

ومن هنا جاءت صعوبة الحسم بين تريفيوس وكومودوس · فكلاهما كان يمثل وجها من أوجه أوريليوس · ولم يكن أوريليوس هو الرجل الفيلسوف الحكيم العادل فقط ولكنه بصفته امبراطورا للرومان كان يحوى جميع الاوجه ـ الحكمة والسلطة ، ممثله فى تريفيوس وكومودوس ·

ان منبع تردد كل من تريفيوس وكومودوس ليس فقط من كونهم أشخاص يعبرون عن تركيبة نفسية تعكس شخص أبيهم ، ولكن ترددهم كان ترددا اجتماعيا يعكس هذا التوازن الدقيق للقوى التى

يمثلانها ٠ فلم يكن تخلص أحدهما من الآخر حاسـما ٠ فقد كان تريفيوس مربوطا بالسلاسل فى انتظار حـكم الاعدام عليه ٠ ولكن كومودوس لم يكن يسـتطيع التخلص منه بهذه السهولة فقد كان تريفيوس يمثل الوجه الآخر ، وهـو الوجه الظـاهر لابيـه ، بينما كومودوس فى سعيه لان يكون خليفة أبيه هو الآخر كان يمثل وجها من أوجهـه ٠ فاذا تخلص من أبيـه فى صـورة تريفيوس ٠ فانه بالضرورة يتخلص من ذاته ٠ ولذلك لم يستطع أن يقتل تريفيوس بسـهولة فدعاه الى المصـارعة وكاد القتل يكون مزدوج فى الحلبه ولكنه انتهى بقتل كومودوس ٠ ومع هـذا فان الموت كان مزدوج ٠ فلان كومودوس كان يمثل وجها من أوجه أوريليوس فان التخلص منه تماما يعنى التخلص من أوريليوس ٠

ولما نجح تريفيوس فى قتل كومودوس كان من المحتم أن يموت هو الآخر ٠ وان كان موته فى هذه الحالة لم يكن بالمعنى الجسدى ولكن بما كان يمثله من اتجاه ٠ وحقق هذا الموت بأن ترك الخلافة ورفض تولى السلطة بل أخذ حبيبته وذهب ٠

وهنا تكتمل القصة من وجهة التحليل النفسى للعلاقات الاسرية٠ فان لوسـيلا كانت تكره أمها وتميل لابيهـا ٠ بينما كومودوس كان يكره أباه ويميل الى أمه ٠ ولما كانت لوسيلا أيضا تمثل أمه ، فهى ابنتهـا ، فانه (أى كومودوس) كان أيضـا يريدها له ويريد أن يفصلها عن أبيه والممثل فى تريفيوس ٠ لقد أبعدها عنه وزوجها الى ملك أرمنيا ٠ وكيف لتريفيوس أن يرفض فهذه أيضا وصية أبيه ٠ ومن جانبها فان لوسيلا كانت ترى فى تريفيوس الوجه المعلن والحسن لابيها ، فكانت ترغبه بوعيها ٠ فاذا ما تزوجت لوسيلا من تريفيوس

فهذا يعنى أنها كانت تفضل أباه عنه وهذا مالا يريده نظرا لتمسكه بولائه لامه ورفضه لابيه (والعكس) ٠

ومع ذلك فانه لم ينجح فى تغيير هذه الحقيقة لان ذلك يمثل الواقع ٠ فالواقع أن أمه استمرت على ولائها لابيه أو هكذا أعتقد ٠ ولذلك كان يحتفظ بشقيقته حية ٠ فهى بولائها لتريفيوس تمثل هذا الواقع الذى لابد وأن يقبله وهو أن أمه فضلت أبيه ٠ وما دامت هى على هذا الحال وتريفيوس حى وبالتالى أبيه حى فانه لم يعيد تحقيق رغبته فى قتل أبيه (والتى كنت قد تمت فى الواقع على أية حال) ٠ لقد كان يسعى دائما لمحو آثار جريمته بأن يبقى على تريفيوس حيا رغم أو ربما بسبب علمه الدفين بأن تريفيوس يمثل أباه بقدر ما يمثل انتقام أباه منه ٠ انه الجريمة منفية والعقاب كامن ٠ واذا ما حقق امنيته فى أن يحصل على ولاء أمه والممثل فى لوسيلا فانه فى هذه الحالة يستطيع أن يتخلص من تريفيوس ٠ لقد كان تريفيوس على وشك الاعدام الى أن واجه كومودوس أن شقيقته تتآمر مع معلمه أن يقتله ورفض المعلم ذلك وأعلن أن من المستحيل أن يقتل الرجل ابنه ٠ وقد كان هو عشيق أم كومودوس وبالتالى أبوه الحقيقى ٠

ان كومودوس كان دائم السعى لمحو جريمة قتله لأبيه بأن يحتفظ بتريفيوس ويتوحد معه وبالتالى مع أبيه ٠ كان امتيازه على تريفيوس أنه ابن أوريليوس الحقيقى وليس بالتبنى ٠ فلما اكتشف غير ذلك فقد الميزة الكبرى التى كان يتمتع بها على تريفيوس ٠ علاوة على ذلك فانه اكتشف أن أمه لم تكن على ولاء لأبيه مثلما فعلت لوسيلا حينما لم تعطى ولائها لرجل : فقد تزوجت ملك ارمينيا وعشقت تريفيوس وتآمرت على قتل كومودوس ٠ وفى نفس الحدث تيسر لكومودوس أن يتحرر من خوفه من قتل أبيه الممثل فى تريفيوس وأمه الممثلة فى لوسيلا ، حينما قتل

أبيه الحقيقى الذى سلبه بهذه المواجهة امتيازه الرئيسى على تريفيوس .
بما أن أباه أوريليوس لم يكن يريده بأن أنكره ، وأباه الحقيقى لم يعترف به لانه لم يحظى بشرف الزواج من أمه انما كان مجرد عشيقا لها فان كومودوس بالتالى لا أب له ـ كلاهما لا يريده .
فليس هناك ما يمنعه من قتلهما . لقد قتل الاول أى وبعد أن وبالتالى فليس هناك ما يمنعه من قتلهما . لقد قتل الاول أى أوريليوس معتقدا أنه أبيه وبعد أن كفر عن ذلك بأن توحد معه اكتشف أنه كان له أب آخر استحوذ على أمه ولم يعترف فقتله هو الآخر .

المأساة فى أن جميع الاشخاص ما هم الا أوجه مختلفة لكيان واحد جماعى وله عدة مستويات ينعكس عليها . فى المستوى الاول فى الفرد حيث ينشق الفرد على نفسه ويحوى الموجب والسالب والخير والشر . والثانى على مستوى الاسرة حيث ينقسم أفرادها كذلك الى أطراف متصارعة . والثالث على مستوى المجتمع الممثل فى قوته العسكرية والاقتصادية والسياسية . والرابع على مستوى المبادىء والقيم الحضارية والاتجاهات التاريخية المتصارعة . والخامس على مستوى الوجود المطلق . فهى من طبيعة الاشياء أن تتصارع وليس لنا الا أن نكون ممثلين لادوار هذا الصراع . وكل طرف فى الصراع بطبيعة الحال يؤكد وجوده على حساب الآخر ويسعى الى نفيه . ولكن الحقيقة أن النفى المطلق للآخر مستحيل فالوجود لا يتأكد الا فى صراعه مع نقيضه .

وفى الختام فان الاحداث التاريخية للفيلم محملة بالمعانى الانسانية والفلسفية ويستحق حوارا وصياغة شاعر أو أديب كبير . بل بالقدر الذى تكرر أحداث التاريخ كثيرا نفسها فى تصور حديثة فان البحث فى التاريخ لا يمكن الا أن يتم وهو متأثر بوقعنا فى أحداث الحاضر .

المعارضة بين يدى ويد عمروا

ما يوجـــد على السطح يخفى نقيضه فى الباطن • ما هـو قائم هـــو الظاهر وبما أنه قائم فاننـا بالضرورة نريده أن يكون أو هكذا يبدو لنا ظاهريا • أى أننا فى الباطن لا نريده أن يكون • اذ فى ذات الوقت الذى نريد أن تكون الاشياء على ما هى عليـه فاننـا أيضا نريده ألا تكون هكذا • فيبدو وكأننا نريد ما هـــو قائم أن يكون بينما نحن فى الحقيقة نريد أن نغيره ، أى ألا يكون •

اذا طبقنا ذلك على المجتمع السياسى وجـدنا أن القائم ممثـل فى الدولة كما هى كمحصلة للأجهـزة المختلفة التى تكونها • وهى بالضرورة تحظى بتأييد الاغلبية من المجتمع ولكن المجتمع هنا يبدو وكأنه يؤيدها ولكن فى البـاطن لا يفعـــل ذلك • وهو لا يفصـــح عن ذلك مباشرة لانه بالتعريف لموقفه المعلن مؤيد لها ظاهريا وما هو باطن موجود فلابد له وأن يأخذ شكلا يوجد به • هذا الشـــكل هو المعارضة •

المعارضـــة موجودة اذا بالضرورة وليس أمامنا الا أن نعيها أو لا نعيها • وبقـدر ما نحن نعكس ما هو قائم فى الظـاهر فاننا بالضرورة لن نعى ما هو باطن وان كان موجـــودا • ومن جانب آخـر بقدر ما نحن نعكس المعارضة فاننا لا نعترف بوجود ما هـو قائم وان كان موجودا فى كلتـا الحالتين فاننا لا نملك الا جانبـا واحدا من جوانب الوعى • اننا نوجد فى حالة الوجـــود الدنيوى بطبيعته الثنائية التى تفصل بين الوعى وموضوع الوعى • فاذا وعينـــا أنفسنا ضمن ما هـــو قائم صـــار ما يعـــارض الواقع

موضوعا لوعينا بينما اذا وعينا أنفسنا ضمن ما يعارض الواقع صار الواقع ذاته موضوعا لوعينا ، والموضوع بطبيعته خارج عن الوعى وغريب عن الذات ومتعارض معها ٠

فى كلتا الحالتين فان هذا الوعى الثنائى يجعلنا فى صراع مع الموضوع فنسعى دوما لتغييره ٠ الدولة تسعى لهزيمة المعارضة والمعارضة بدورها تسعى لهزيمة الحكومة ٠ والامر استحالة فى الحالتين ٠

وفى النهاية يبدو وكأنه المخرج من المعضلة أن يتجاوز الوعى ذاته ويعى ذاته والموضوع كوحدة بلا صراع ٠ ولكن المعضلة تعود مرة أخرى اذ أن هذا الوعى المطلق بوحدة الذات والموضوع يعنى بالضرورة انعدام الوجود الذاتى ٠ وهذا بدوره يساوى الفناء التام ٠ ولكن بما أننا موجودين فعلا فى حالة بقاء بحكم وجودنا المجسد ماديا فان تلك الحالة المطلقة من الوعى بوحدة الذات الموضوع استحالة ٠ ونعود مرة أخرى الى حالة الوجود الثنائى ٠

وهكذا نجد مرة أخرى أننا انتقلنا الى حالة من التجاوز لثنائية أخرى وهى أن نعى وجودنا فى كلتا الحالتين من الوعى أى الوعى الثنائى بالذات والموضوع والوعى الموحد حيث لا ذات ولا موضوع ٠ الاولى يحكمها وجودنا المادى المجسد والثانية يحكمها تجاوزنا لذلك الوجود ٠

الدولة تمثل جانب من الثنائية والمعارضة تمثل الجانب الآخر هذا هو الوجود الثنائى ٠ ولكن الدولة أيضا تمثل الدولة والمعارضة معا ٠ الدولة التى تعى وجودها الظاهر ولا تعى المعارضة لها لابد وأن تكون فى صراع مع المعارضة وليس أمامها الا أن تتبادل معها الادوار على البعد الزمانى ٠ وبقدر ما يستطيع

القائمون عليها أن يبدلوا أدوارهم من وضع الى وضع معارض له فهم يملكون ديمومته كأشخاص ، وبالقدر الذى لا يملكون تلك المعرفة فهم يتغيرون ويأتى من يحل محلهم من المعارضة ٠

الا أن المجتمع وان كان دائم التغيير فهو يميل أيضا الى الاستقرار فيفوض من هم على قمة نظامه القائم فى تغيير آخرين بالقرب منهم فى سبيل أن يستمروا فى البقاء ويحفظوا ذلك القدر المطلوب من الاستقرار ٠

ولذلك فان رئيس الدولة لكى يحفظ هذا الاستقرار لابد له وأن يملك المرونة التى تجعله يغير من دوره لكى يحتفظ بشخصه وكذلك يغير الاشخاص حوله ٠ فهو ان لم يغيرهم غيروه وهو ليس المطلوب للحفاظ على الاستقرار ٠

المشكلة تأتى حينما تنكمش قدرة رئيس الدولة على المرونة وتغيير دوره ويزداد ارتباطا بما هو قائم وبالدولة فيجد نفسه فى تناقض متزايد مع المعارضة الامر الذى يعجل بتبديله ٠ وهذه المرونة قد تنكمش بحكم سنه علاوة على الجمود الذى يصيب من حوله من كثرة ما تعودوا على التأييد ٠ فهم أيضا قد فقدوا القدرة على معارضته من كثرة ما تعودوا على طاعته ولهذا فهم بفقدانهم تلك القدرة على معارضة يفقدونه مرونته بحكم احاطتهذ له ٠ انه كلما ازداد تناقضه مع المعارضة خارجه ازداد احتياجه للمعارضة من داخله لكى يتغير ٠ ولذلك نجده يلجأ الى وجوه جديدة تؤيده حيث لم تفعل ذلك من قبل فلا يكون تأييدها له جامد لا يتغير ولكن مصحوب بالمعارضة أيضا والتى تعينه على المرونة والتغيير

لقد جاء الرئيس السادات المحللين بقدرته على التغيير بأن يفعل

ما هو غير متوقع ـ فى ١٥ مايو وفى أكتوبر ١٩٧٣ وفى مبادرته فهو شـــديد المرونة • ولكنـــه لم يكن يســـتطيع ذلك لولا ائتمان ظهره داخليا بوجود من يؤيدونه بشكل مستقر • ولذلك كان عليه أن يجدد بأن ينشىء مجالا للمعارضة التى تعاونه على التغيير • انه لا يســتطيع الا أن يغير الوجوه من حوله والا أصــاب الدولة الجمود المفرط •

ان السادات لكى يحافظ على وجود الاســـتقرار النســـبى الذى يطلبه المجتمع لابد وأن يكون دائم التغيير ـ يتغير ذاتيا ويغير من حوله بحيث يعاونه ذلك أيضا على أن يتغير ذاتيا •

ان الجيل الذى تعود تأييده أو معارضته بشـــكل واضــــح لا يصلح للحوار معه • اذ فى تأييده المبالغ فيه تعويق له عن المرونة بينما فى معارضته المفرطة له فان هـــذا الجيل لا يرضى بتغيـــير شخصه بديلا • ولذلك فان السادات يبحث عن الوجوه الجديدة •

لقد اكتشف نائبا له من خلف الاضواء ومن خلال تجربة حيـــــة •• هى حـــــرب اكتوبر التى حافظت على تطور المجتمـــع نســـبيا •

ولذلك فلا مفر له من أن يكتشف وجوها جـــديدة مثـــله تقوم بدور المعارضة تحت ظله ثم المعارضة المعلنة وهكذا • لقـــد بدأ السادات فى اكتشاف ســـلسلة من الوجوه الجديدة وهو اتجـــاه ســـوف يؤكد ذاته ويزداد حتى يصل فى كل مرحـــلة الى الحجم المناسب الذى يحقق التغيير المطلوب • وهـــو يعـــلم ويكرر أنه من جيـــل لابد أن يذهب ويترك مكانه لغيره • لابد له أن ينمى الوجوه الجـــديدة حتى تقـــوم بدور المعارضـــة للوجـــوه القديمة فتضمن استمرار نمو المجتمع •

ولكن السادات لن يؤيد تلك الوجوه الجديدة طالما هى غير قادرة على حماية نفسها من ما يعارضها · ان التحدى الذى يواجه تلك الوجوه على جميع المستويات هو قدرتها هى أيضا على المرونة والتكيف مع ما هو قائم فلا يكون تعارضها معه حادا لدرجة النفى المتبادل فتنفى قبل الاوان وتعزل مع الذين اكتفوا بتمنى التغيير ولكن لم يحققوه ·

الباب الثاني

الاعلام وقبول الآخر ·· داخليا وخارجيا

أن الشيء حينما يعرف فانه يتضمن نفى معنى آخر ، لان من البديهى أن لكل شيء « ضد » ما ·· فاذا طبقنا ذلك على المفهوم العام لسياستنا فاننا نستطيع أن نصفها بأنها سياسة انفتاح وهذا يعنى ضمنا أنها سياسة ضد انغلاق · واذا كان الظاهرهو هذا التأكيد لمفهوم الانفتاح فلعل ذلك مبنى على افتراض ان القديم الذى كان قائما وقويا وله جذور بل وما زال له وجود هو الانغلاق ، والانفتاح ما هو الا الدعوة لتغيير هذا الوضع القديم لاحلال جديد بدلا منه · وعلى ذلك فان الدعوى الى الانفتاح على أنه دعوة هدامة لابد من مقاومتها حفاظا على وجوده ، من واقع الى آخر وهنا ينشأ تناقض وتصارع بين الاثنين : فالذى يدافع عن الانغلاق ، أى الواقع القديم ، انما ينظر الى الانفتاح على أنه دعوة هدامة لابد من مقاومتها حفاظا على وجوده ، وبما أنه لا يستطيع أن يجد مبررا لمقاومته للتغيير لمجرد كونه تغييرا فهو يحتاج الى تبرير وعقيدة · فى هذه الحالة فان الانغلاق ينتحل لنفسه صفات وشعارات يبرر بها وجوده كما أنه فى نفس الوقت يكسو نفسه بثياب من الصفات المضادة يبرر بها صراعه مع الانفتاح · وبطبيعة الحال فان الثياب الجديده التى ينتحلها لنفسه تكتسب قيمة ايجابية مثل الحق أى الصواب أو الخير أو التقدم أو النظام

أو الوحدة أو الاشتراكية أو الناصرية أو معاداة الاســتعمار كما أن الصفات التى يسقطها على خصمه تتصف بالقيمة السلبية مثل الباطل أو الخطأ أو الشر أو التأخر أو الفوضى أو التفكك أو اليمينية او الارتماء فى أحضان الاستعمار وهكذا ٠

ويستمر الصراع خفيا طالما ان جانبا أقوى بوضوح من جانب آخر ، ولكن الضعيف عادة حينما يستمر وجوده فى الظلام ينمو ويتسلل وهو متخفى بل متشبه بنقيضه مثل الصــورة الســالبة (أو النيجاتيف) حتى يأتى يوم انتصاره ويتغلب على خصمه ويصبح هو القوى وخصمه هو الضعيف ٠ ويعود القوى الى الجانب الآخر من المعادلة ويستمر فى المقاومة فى الظــلام مرة أخرى وتتكرر الحلقة وتتبدل ارتباطات القيم الموجبة والسالبة بالصفات الغالبة الجديدة ٠

فمن كان قويا بالامس أصبح ضعيفا اليوم ٠ وطبيعة الوجود ليس دوام الحال وان كانت القاعدة نفسها فى العلاقة المتصارعة بين القوى والضعيف تنطبق على العلاقة الجديدة ٠ واذا كان الانفتاح - كمثال - هو الذى يطلق على السياسة الغالبة اليوم من حيث أنها اصبحت هى الأمر المستتب والوضع القائم الجديد فان ذلك بالتالى يعنى انه قائم ويستتب فى مقابل قوى معارضة من أجل التغيير ، فهو بالتالى يستطيع أن يضفى على نفســـه قيما تتصف بالايجـابية مثل الرخاء والحرية والنجاح كما أنه فى نفس الوقت يضــفى على كل ما ينفيه صفات تتصف بالسلبية كأن تكون تضييقا وكبتا وافلاسا هو يفعله فيه عندما كان الوضع معكوسا ، وهو بهذا لم يفعل الا أن أبقى على القاعدة الاساسية فى العلاقة بينهما رغم أنه تغير المقاعد٠ ومع أزدياد استقرار الوضع القائم وبقائه فهو يزداد قوة وتسلطا

وان كانت هذه القوة لا تأخذ صـــــورة الجبروت والكبت والقمع المكشوف الا عند نقطة التهديد لوجوده ٠

والمؤسف هنا ان التغاضى عن هذه الحقيقة يجعل صاحب الغلبة والهيمنة على الوضع القائم يعتقد أنه يمثل القيم المطلقة ـ الخير والحـق والحرية ـ وكل من عداه فهـو شر وباطل يجب القضـــاء عليه أو التخلص منه أو الغاء وجوده بصورة أو أخرى حتى ولو بالتجاهل ، وتكون النتيجة ان هذا الطرف الضعيف يجد نفسه مرة أخرى يتقهقر فى الظلام ليعمل من جديد لتغيير الوضع القائم حتى ولو لبس ثيابه وتسلق على اكتافه ٠

الا أن الحياة بحكم وجودها وتاريخها هى تطور وتغيير واذا كان هناك فى طريق التطور تجارب انتهت بالفشل والتراجع فمع ذلك يوجـد تيار مستمر من التغيير نحـو المزيد من التحـــرر من القوانين وعدم الرضوخ للامر الواقع والمحاولة المستمرة لتغييره . واذا كان التغيير الذى يبدو لنا الان على مستوى التطور الاجتماعى يأخذ صورة التغييرفى مواقع القوة فى حلقات شبه متكررة الا أن هناك تغييرا بين كل حلقة والتى تليها يجعل من المحتمل ان يكون هناك اتجاه ما لهذا التطور فان هذا التغيير يأخذ صورة التقريب المضطرد بين الاضداد والمحاولة المستمرة لمحو هذه الفجوة التى بينهما واذا كانت هذه المحاولات حتى الان لم تغير نوع الفجـــوة الا أنه فيما يبدو هناك تغييرا فى الكم اذا ما وصل الى نقطة حاسمة ـ يصير تغييرا كيفيا ـ أى أن هناك أملا بالمحاولة المستمرة فى أن يكون التغيير فى احدى هذه المحاولات كيفيا وليس فقط كميا ٠ ولعل التشبيه بما يحدث للماء حينما ترتفع حرارته كميافيستمر ثابتا كماء

من حيث الكيف ولكنه يزداد حرارة من حيث الكم الى أن تأتى نقطة الغليان فيتحول الى بخار ٠

واذا افترضنا فى هذه الحالة ان التغيير هو فى محاولة التخلص من الحلقة المفرغة التى تجعل القوى يغلب الضعيف حتى يثور عليه هذا الاخير ويأكله بالتالى وتتكرر هكذا بلا نهاية ، فأننا نستطيع أن نقول أن التغيير الى الامام بمعنى التغيير فى الاتجاه الذى ينتظر له الديمومه هو التغيير نحو الاقلال من الفجوة بين القوى والضعيف أملا فى أن يصل وتقترب من نقطة العلاقات المتساوية والندية ٠ فما الذى نستطيع ان نخرج به تطبيقيا من حيث التحكم فى تطورنا بوعى ؟

نعود الى مثال الانفتاح وعلى أساس اعتباره الامر الواقع الجديد الذى يقاوم محاولات تغييره ٠ فالملاحظ الآن ان هذا الواقع يمارس درجة من النفى لوجود ما هو ضده الى مدى يجعل من الاحتمال أن ينمو هذا الضد فى الظلام حتى يهدد بقلب الوضع مرة أخرى ومن حيث الجيل الاول لممارسى الواقع الجديد يكتسب وعيا من خبرات الماضى فانه يتردد فى العودة الى الاساليب القمعية ولذا فهو يتميز بدرجة من التقبل للرأى الآخر ٠ الا أن الجيل الثانى الذى ينشأ فى ظلاله ولا يملك نفس الدرجة من الاتصال بالقديم وبالتالى فهو لايحمل دروس الماضى وحكم الشيخوخة معه انما يتعجل الحكم ويتثبت لتأكيد وجوده وانكار غيره ٠ هذا الجيل يكون النواة الجديدة للواقع المتحجر الجديد وهو بمثابة عودة الى الخلف أى انه اذا كان الجيل الاول من الانفتاحين الذين عانوا من وجودهم فى الظلام فيما مضى مما يجعل من انفتاحهم تقبلا

للجميع فهم بذلك اقرب الى القاعدة بحكم انهم فى صراعهم السابق مع القمة فى سبيل الوصول اليها اضطروا الى اللجوء الى القاعدة لتساندهم . هذا هو حال الجيل الاول ولكن الجيل الثانى الذى ينشأ فى حماية ورفاهية هذا الجيل الحالى انما يتكون وعيه فى ظلال الانفتاحين دون غيرهم فهو بمعنى آخر ينشأ منغلقا على الانفتاحيين حينما يصل بدوره الى القمة فانه يتمتع بنفس سعة الصدر الذى تمتع بها قادته . وهو يمارس الحرية والحب والاخاء فى نطاق دائرته فقط ولكن خارج ذلك فانه يستطيع الغائهم بأن يطلق عليهم أسماء مكروهة فى المجتمع فى ذلك الوقت كان يلقى عليهم الاتهامات بعدم انتماءهم للمجتمع .

وهكذا نجد الحلقة قد عادت واصبح المفكرون يعملون على تثبيت افكارهم بصورة تقتل جوهر افكارهم ، ويصبح كل طرف ينأى بحقه فى التعبير عن نفسه اذا كان فى موقف الضعيف .. ويمنع الطرف الآخر من ممارسة حقه فى التعبير عن نفسه اذا كان فى موقف القوى الا أن الانسان اذا كان صراعه من أجل البقاء قد حتم عليه أن يتعلم من تاريخه فهو يتعلم ان الذى كان فى القمة بالامس اصبح اليوم فى القاع ، وان من فى القاع اليوم قد يكون فى القمة غدا ، وفى محاولة الطرف المغبون ان يعود الى مكان القمة يلجأ مرة أخرى الى القاعدة يدعوها الى مساندته فى المطالبة بالمزيد من الحرية والعدالة حتى تنقلب الاحوال ويصبح هو فى القمة وتعود الحلقة ولكن فى كل مرة تقترب المسافة كميا بين النقيضين بأن يكون التغيير اقل عنفا واكثر رحمة واذا كان التغيير مجرد تغيير كمى حتى الآن وليس تغييرا كيفيا أى أن عدم الفهم المتبادل مستمر ولكن صورته هى التى تتغير (كما صورها يوسف ادريس فى مسرحيته « الفرافير ») . الا أن الأمل ان يحدث تحول كيفى

عند درجة حرارة معينة أو يتحول الحديد الى مغناطيس بعد نسبة معينة من المغنطه ٠

نستطيع أن نقول ان العمل المستمر نحو تقريب المسافات بين الاضـــداد هو الذى ســـوف يحدث التغيير الحاد عند نقطة معينة ٠ ولكن الانتظار حتى نصل الى تلك النقطة هو فى الواقع هروب من الالتزام نحو التغيير بل ربما يعتبر موقفا مضادا للتغيير ٠ واصحاب مثل هذا الموقف هم الذين يقاومون بفاعلية فيصـــبحون بالتـــالى فى شـــقاء مســـتمر لانهم غير راضـــين عن الواقـــع وفى نفس الوقت لا يعملون شيئا لتغييره فلا ينوبهم الا الاحباط ٠ ومن جانب آخر فهم لا يقبلون هذا الواقع ٠

ولكن الاحباط يصـــاحبه الألم ، والألم كثيرا ما يتعدى درجة الاحتمال ٠ وهنا تنشأ الانفجارات والفرقعات وقد يواجهها صاحب الشأن الى الداخل فى صورة الانتحار السريع أو البطىء (ادمان الطعام أو العقـــاقير أو الجنس أو العمل أو الانطواء والانسحاب من الدنيا والزهد أو الانسحاب بالجنون) أو قد يوجهه الى الخارج فى صورة القتل السريع أو البطىء (مثل الاجـــرام واعمال العنف المختلفة أو التسلط على الضعفاء والاطفال والنســـاء الخ) فكلتا الحالتين ــ القتل والانتحار ــ فيها نوع من الرفض لما هو قائم ولكنه حتى تلك النقطة رفض سلبى وغير فعال ، علاوة على أنه برفضـــه القاطع هذا انما يستفز الطرف الذى يرفضه فيزداد قمعا وتسلطا فالنظام يتناقض مع الفوضى ، والفوضى حينما تزيد فانهـــا تستفز النظام لمزيد من التمسك بموقفه والدفاع عن وجوده علاوة على أنها اذا نجحت فى الغاء النظام فلا مفر من أن تتحول الى نظام يعامل

من يثور عليه بالمثل أى بالتشـبيه السياسى تتحول الثورة الى نظم دكتاتورى فاشى ٠

اذا فليس هناك حل له ديمومه يمكن أن يتأتى من تغليب جانب على آخـر فلا الفوضى ممكنه ما دام هنـاك حاجه الى نظـام قوى يرفضها ولا النظام المطلق ممكن طالما أن هناك مقاومة له لا مفر منها اذا أخذنا فى الاعتبار بعد الزمان من الحركة والتغيير ٠ واذا كان هناك حل فهو فى الرؤية ان ليس هناك حل ٠ وهكذا بقبول التناقض نستطيع الحفاظ على الوجود مع الحد الادنى من الالم ، الامر الذى يجعلنا قادرين على الاستمرار فى الحياة ٠ والمعادلة الصعبة هنا هو أنه طالما نحن نعيش فى هذه الدنيا فاننا محكومون بقوانينها ولا مفر من وجوه تناقض وصراع ، ولكن فى نفس الوقت لكى نستطيع تحمل آلام هذا الصراع فلا بد من الخروج من دائرته ومحـــاولة القضـاء عليه بأن نغلب الطرف الذى ننتمى اليه أى القبول بوجود الاضداد المتصارعه فى نفس الوقت الذى قد نكون فيه طرفا فى هذا الصراع ونرفض ما هو ضدنا ٠ وهو حسب التعبير المسيحى أن نكون فى الدنيا وليس منها أو التعبير الصوفى أن نكون فى خلوة فى جلوة ٠

فلنعود الى التطبيق فيما يتصل بسياستنا الاعلامية فاننا قد تقبلنا بدون شك درجة ما من الاختلاف فى الرأى ، وحرية الكلمة لم تكن متوفرة لدينا فى الماضى القريب ولكننا فى الحقيقة نحاول الابقاء على هذا الاختلاف داخل اطار موحد تحت شعار الاسرة الواحدة وهو شعار مقبول وينطبق تلقائيا حين يهاجم الغريب أولاد العم فيتحد ابناء العم ضد الغريب بعد أن كانوا مختلفين ٠

الا أن حدود الاسرة الواحدة مطاطة ، فقد أحدد وجودى داخل هذه الدائرة فاضيع على نفسى فرصة التعامل المثرى مع الغير ٠

وابقى هذا التفاعل على مستوى الالغاء المتبادل وتسمية من هو خارج الاسرة باسماء سلبية · مما قد يدخلنى مع الآخر فى صراع او يجعلنى ازيد من الانكماش وهو نوع من الرفض للواقع يشـــبه الانتحار بينما الموقف المناقض أقرب الى القتل ·

فهذه الامة العربية بعد ١٩٦٧ اتجهت نحو الانكماش وعداعية التفكك ، فقد انكرت وجود اسرائيل والاستعمار والقـــوى العالمية وخفضت من تفاعلها معها مما جعلها تنكمش وتنغلق على نفسها وبدلا من اخراج طاقة القتل والدخول فى صراع مع الآخر تحولت الطاقة الى الداخل فى صورة التدمير الذاتى ·

الدول العربية منشقة وتضيع جهدها فى تقاتل أجزائها أى دولها وداخل كل دولة منها على حدة أيضا تتقاتل الأجزاء وينتقل هذا الشعور الى داخل الافراد فيصيرون متفككى الشخصية متناقضين داخليا وهى بمثابة انسحاب حضارى وانتحار يعم الفرد والمجتمع على السواء وفى تفاعل متبادل · ولكن هناك خط آخر منذ ١٩٦٧ وهو الذى لم يقبل على الانتحار فرفض الاستسلام وأخذ يقوى ســاعده ويتحين اليوم الذى يمكن ان يقتل فيه بدلا من أن ينتحر · وهكذا بعد الوصول الى القاع من اليأس يتولى الفجر والشروق · ونما هذا التيار حتى تمخضت عنه ثمرة ٦ أكتوبر ، فقـــد كانت فى لحظة حدوثهـــا هى العلاج لليأس والحضيض والمخرج من الانتحار واتحدت الأمة العربية وازدادت قوة بوحدتها وتحولت طاقتهـــا الى الخارج مرة أخرى وكأن عبورها هذا الحاجز المائى هو بمثابة الوضوء وغسل العار أو كأنه العمادة التى ينالها المولود الجديد ·

وسرعان ما انخفضت حدة الصراع مع ما هو خارج الكيان

العربى ـ وهو الاستعمار المتمثل فى الصهيونية ـ وزال الخطـــر الخارجى حتى عادت مرة أخرى الخلافات بين أبناء العم وانكمش الكيان العربى الى كيانات مفتتة وأصبح كل ما هو « نحن » فاضل وكل ما هو « هم » رذيل • ورغم درجة نضج الحكام احيانا فى تقبل هذه الخلافات فان اعلامنا ما يزال تحت تأثير الدائرة الصـــغيرة « فنحن » تساوى مصر ومن يساندها « هم » تساوى من يرفضون هذا الكيان • وبذلك جعلناهم فى صراع من الخارج الأمر الذى يزيد من آلام الطرفين •ويبدو ان الاعلام فى هذه الحالة أكثر تخلفا ، فما زال الاعلام يعتقد انه لابد من الدفاع عن الرأى الغالب وان الكتابة عن الاخرين مسموحة شرط ان تكون ناقدة ومهاجمة ، وبهذا يخلق الاعلام صورة كل بلد عربى رأى واحد دون رفض أو معارضة وهو الذى تحدده القيمة السلطوية ، وهذا الأمر حتى من وجهة نظر السلطة ذاتها يعتبر ضارا بها • فالذى يفاوض يعانى من حصار العاجزين عن تفهم موقفه •• والرافضون للتفــــاوض يعانون من عزلتهم عن فوائد المفاوضة • فالسلطة تستطيع أن تكون فى موضع أفضل رغم أن التنسيق بين مواقف الدول العربية يمكن أن يحقق للمفاوض مكسبا ويحقق للمتشدد مكسبا •• لكن لان هذا لا يحدث •• نجد أن الحساب بين الطرفين عسير ، والصورة الاعلامية التى تصور كل شعب عربى على أنه يسير وراء حكومته بدون وعى أو ارادة تجعل الاطراف الأخرى تركز فى اهتمامها على الحـــكام فقط دون شعوبهم فتكتفى باجادة كيفيات الضغط والاغراء بالنسبة للحكام بدلا من مراعاة مصلحة الشعوب ، وذلك فى صورة العمولات والرشاوى أو التهـــــديد بالفضـــــح (ووترجيت ، لوكهيـــــد) تلك

الصورة هى التى تشجع المخابرات الاجنبية على السعى الى قلب الانظمة الحكومية بالقوة أو باغتيال الحكام أو فضحهم على أساس أن من يملك القوة العسكرية أو يجلس على قمة النظام الهيراركى يملك السيطرة على الشعب باسره ٠

والأمر المطروح أمامنا اليوم هو هل نتطور بوعى نحو المزيد من تقبل الرأى الآخر أم نبقى ساكنين حتى يفرض التغيير نفسه علينا ؟هل نستطيع أن نقول ان المعارضة لابد منها وأن خير لها أن تكون علانية بدلا من أن تعمل فى الظلام ؟ وهل نستطيع ان نسمح بالدفاع عن وجهة نظر ما يسمى بجبهات الرفض المختلفة داخليا أو خارجيا ؟ وهل يمكن ان نتقبل الدعوة الى العدالة الاجتماعية والتعامل المتزن مع دول العالم المختلفة دون أن نشير بالاتهامات ونطلق الاسماء والاحكام كالعمالة والاستيراد ؟ وهل نستطيع ان نتناقش بصدر مفتوح ونختلف بشرف من منطلق عقلى وبدون أفكار مسبقة أو غيرها ؟ أو ليس الاسلام هو دين الفطرة والعقل الذى انطلق من رفضه للاصنام والمقدسات وأشعل فتيل الثورة فى كل ما لمسه دون الحاجة الا الى أدنى حد من القوة المسلحة ، بل أو لم تكن كل حركة خلاقة وداعية للمتطور فى بدايتها فى نفس الوضع ؟ اذا فلا مفر لنا اذا ما أردنا التطور من تقبل مثل هذه الثورات الرافضة وكلما زاد تقبلنا لها كلما كانت عملية المخاض نحو الميلاد الجديد أقل ألما لنا وللمولود (وهو اتجاه يؤخذ به حديثا فى مجال طب التوليد) وكلما قاومنا التغيير وضعنا انفسنا أمام احتمال واحد وهو أن يحدث التغيير بالانفجار العنيف والتدمير للواقع ٠

واذا كان للاعلام دور هنا فى تقبل التغيير والسير معه فذلك من خلال تمكنه من التعبير الصادق والموضوعى عن وجهات النظر المخالفة اسوة بوجهات النظر السائدة أى الا يقتصر الاعلام على نشر وجهة نظر الحكومة فقط ولكن يفسح مجالا للآراء المعارضة ـ ان تخرج على الملأ فاذا كان الانفتاح حقا انفتاحا عقليا ووجدانيـا فان نجاحه يتوقف الى حد كبير على مدى قدرتنا على تحمل الاختلافات داخليا وخارجيا ٠

مصر وإسرائيل

ان دراسة النفس البشرية على مســـتوى الفرد تنقلنا بحكم الضرورة الى دراسة المؤثرات الخارجية التى تشكل تكوينه وهى فى البداية تتكون منا لمجموعة الاسرية التى نشأ فيها • وبالمثل فان هذه المجموعة بالتالى تنقلنا الى مجال دراســة العــوامل الاجتماعيــة الاشـــمل التى تؤثر عليها • وهى بالضرورة عوامل تقع دراستها تحت عنوان السياسة • وعلى العكس فان هذا الانعكاس للعوامل السياســية على حياة الفرد يجعلنا نرى دراســـة النفس البشرية كدراسة سياسية مصغرة •

من هذا المنطلق نستطيع أن نبحث فى العلاقة بين ما يدور على كل مستوى ونستدل من استنتاجاتنا فى مجال ما على ما يحدث فى المجالات الاخرى •

فاذا بدأنا بالفرد وجدنا أن هناك نقلات فى تكوين الفرد ذات اتجاه ما • فالفرد يبدأ من العدم الى الوجود الذى يؤكد ذاته فى صراع مع العدم ، ثم الى الوجود الذى يتلائم مع العدم فى اتجاه لا هو مستقيم ولا هو دائرى بل لولبى أى فيه عودة فى النهاية الى نقطة موازية للبداية ولكن ليست مطابقة لها بالضبط •

ولنأخذ المثال بين حياة الانسان فى مراحل الطفولة كنمط • فالطفل فى بداية تكوينه هو جزء عضوى من جسد أمه وهو بالتالى لا يعى وجوده كوجود له كيان انما هو امتداد لوجودها • وهى بقدر ما تمثل محيطه الخارجى تســـاوى الكون • أى أنه يعى وجوده

كجزء من الوجود الكونى ولا يعى وجوده كذات منفصله · أو بعبارة اخرى هو فى حالة عدم ·

وفى نهاية عامه الاول ينتقل الى حالة التصــــارع مع بيئته ومن خلال هذا الصراع فهو يؤكد حدوده ويعى ذاته · وهو يعرف هذا الوعى بأنه نفى للآخر اى امه ، ومن هذا الوعى بالثنائية : انا « لا تساوى » الآخر فهو يعى حالة صراع بين طرفين وبالضرورة فهو يعطى قيمة الطرف دون الآخر أى يبدأ وعيه بالخير والشر · ونظرا لانه حديث الوعى بوجوده فهو يعى تلك الثنائيات بصورة قاطعة وقد تتبادل او تتداخل الثنائيات بين كونه يمثل جانب الخير (أنا خير وأنت شر) وهو ما يقابل الموقف البارانوى فى الطب النفسى (بارانويا = جنون العظمة والاضطهاد) أو قد يمثل جانب الشر (أنا شر وانت خير) وهو ما يقابل الموقف الاكتئابى فى الطب النفسى (الاكتئاب = مرض يعكس الاحساس بالهبوط الوجدانى والحزن وفقدان القيمة)·

وبعد ان يتأكد منَ حدود ذاته ويبدأ فى وعيه بالاســـتقلال فهو يعى الآخرين وينتقل من العلاقات الثنائية الى العلاقات الجماعية اى الاعتراف بالآخرين وليس فقط بثنائية انا والآخر · ويحدث هذا ابتداءا من العام الثالث ويستمر مع التطور فيما بعد ذلك · انَ وعيه بالآخرين ينقله أيضا الى نوعية أخرى منَ التقويم لا يكون الفصل فيها بين الخير والشر حادا أو واضحا ، أى أنا خير وشر وأنت خيــــر وشــــر ·

ونفس هذه التطورات نجدها على مستوى المجموعة من واقع المشاهدات فى العلاج النفسى الجماعى · فالمجموعة تنتقل من حالة التفكك او التعارف السطحى الى حالة تكوين هويتها وهو تكوين

قد يرتبط بثنائية القيم حيث تمر المجموعة بمراحل تقابل صراع الثنائيات المشار اليه فى حالة قتال أو هرب مقابل عدو (هو الشر والمجموعة خير) أو فى حالة اعتمادية على آخر سوف يرعاها ويساندها (المجموعة شر وهو خير) · ومع استمرار نضوج المجموعة تنشأ نوعية جديدة من العلاقات يتكون فيها القبول المتبادل لوجودها وقيمتها فى مقابل الآخرين · وما يحدث بين المجموعة وما عداها ينعكس داخل المجموعة · كما ينعكس داخل كل فرد فيها ، وعلى العكس فان ما يحدث فى كل فرد ينعكس فى علاقات الافراد فى المجموعة وعلاقة المجموعة مع غيرها ·

مرة أخرى فاننا نجد نفس القاعدة تنطبق على المجموعة أن هناك اتجاه لولبى ، لا دائرى ولا مستقيم ، من العلاقات الهادئة الى الصراع ثم عودة الى العلاقات الهادئة ولكن على مستوى آخر ·

ولعل ما يحدث هنا وهناك لهو انعكاس ليس فقط للقوانين التى تحكم النفس البشرية ولكن لقوانين الجدل فى الطبيعة عامة· فالمادة تتحول الى طاقة ثم تعود مادة والموجة ترتفع الى قمة ثم تعود الى قاعدتها وهكذا ·

فاذا انتقلنا الى مستوى آخر وهو المستوى الاجتماعى فسوف نجد نفس القواعد ولنأخذ حالة ملموسة فى محاولة لفهمها من خلال تلك القاعدة · وهذا المثال هو الصراع العربى الاسرائيلى وبالذات فيما يختص بموقف مصر منه ·

اذ أن هذا الصراع بفضل حدته وعنفه وتركيزه فى فترة محددة من الزمن (الثلاثون عاما الماضية) قد يصلح كمادة لدراسة هذه التطورات النفسية على مستوى المجتمع الاوسع ·

فاذا أخذنا البداية وهى حالة التكوين من العدم فان اسرائيل كدولة قد بدأت فى تحديد هويتها منذ تلك الفترة الوجيزة رغم ما قد سبقها من مقدمات على مدى القرون ·

ومصر بالتالى رغم تاريخها العريق كانت فى نفس تلك الفترة تعيد ميلادها كتكوين جديد · كلاهما نشأ فى أحضان النظام العالمى الذى وصل الى درجة من الاستقرار على الشكل الذى نصفه اليوم بأنه الاستعمار القديم وبالتحديد الاستعمار البريطانى · وكلاهما كان فى دور اكتشاف هوية جديدة له من حالة ضياع ســـابقة أى حالة عـــدم ·

الا أن الصراع انتقل بسرعة من حالة الصراع مع المســتعمر المشترك البريطانى الى صراع بين الطرفين الحديثى التكوين · مما جعل كل من الطرفين يتجه الى حالة من الاعتمــادية على قــوة خارجية تضمن له امداده بالسلاح ليواجه الطرف الآخر · وكلاهما ينظر للأخر كعميل ومعتدى بينما ينظر لذاته كباحث عن التحرر ·

وبحكم الطابع البدائى للصراع فان كلاهما كان يتصف بالقيم القاطعة التى تميز بين الخير والشر مع تأكيد جانب الخير للذات والشر للآخر · وبحكم هذه الطبيعــة البدائية للادراك فان كلاهما كان ينفى وجود الآخر ويسعى الى القضاء عليه بشكل أو آخر ·

وكان هذا يمثل ضرورة بالنسبة لتكوينهما النفسى أن يعى كل منهما ذاته بتفضيلها عن الآخر الا أن مثل هذا الوعى البدائى يتجاهل الواقع الذى لا يتصف بهذه القيم الواضحة للخير والشر · الامر

الذى يؤدى الى حالة تصادم مع الواقع وهذا الواقع الذى تصادما معه يتمثل فى واقع قوتهما اذ أن مصر قد بالغت فى الاستهانة بقوة اسرائيل ومن يساندها حتى عام ١٩٦٧ بينما العكس حدث من جانب اسرائيل بعد ذلك حتى عام ١٩٧٣ · وكانت الضربات المتبادلة بمثابة الصـدمات التى أفاقت كل منهما الى الطبيعـة البـدائية للصراع المتبـادل ·

ولذا كانت النتيجة الطبيعية لمثل هـذه الصـدمات أن ينتقلا الى مرحلة تالية فى الصراع ، وهى مرحلة الوعى الجماعى الذى يترك مكان للوجود المتبادل بين الاطراف وليس بالنفى المتبادل لها تلك المرحلة هى التى تقابل المرحلة الثالثة التى أشرنا اليها فى نمو الفرد وكذلك المجموعة · وهى مرحلة يمكن ترجمتها على الصعيد السـياسى الى مرحلة الصراع المتحضر الذى لا ينبنى على الرفض القاطع للطرف الآخر · وهو ما قد وجد انعكاسه فى صورة المبادرة التى قام بها الرئيس السادات مؤخرا ·

ولعل وقع هذه المبادرة ليس فى حدوثها فى ذاته ، ولكن حدوثها فى وقت لم يتوقعه الطرف الآخر · الأمر الذى يجعله فى موقف دفاعى وحرج · فهو قد بنى تكوينه النفسى على أساس أنه لا سلام مع العرب لانهم بطبيعة تكوينهم البدائى لن يبادروا بالسلام · ومن هذا المطلق فلم يكن هناك داع لاعادة النظر فى مواقفهم وتكوينهم النفسى · فالطاقة الحقيقية التى تغذى اسرائيل بقوة التماسك كانت تعتمد على مصدر هام وهو عداء العرب لها · وانقشاع هذا العداء بين يوم وليلة قد يؤدى الى هزه عنيفة فى البنيـان النفسى الاسرائيلى · وان كانت الهزه الظاهرة فى الواقع هى التى حدثت فى التماسـك العربى ·

الامر الذى يجعل العرب فى موقف بدائى نسبيا بالمقارنة مع اسرائيل • فالعرب مازال يجمعهم العداء لاسرائيل اكثر من أى عامل آخر • وغياب هذا العداء أيضا يصيبهم بهزة •

الا أن مثل هذه النقلة لامفر منها وكان لابد لاحد أن يبدأ بها • ومصر بحكم نضجها النسبى الذى اكتسبته من خلال الصراع الطويل والذى لم يكن كلمة هزيمة (شر) أو نصر (خير) قد انتقلت خطوة على المستوى النفسى من حالة القطعية فى التقييم والثنائية الحادة بين الخير والشر • ولذلك كانت مصر - من موقع القوة وعلى الصعيد العلنى والمكشوف - هى أول من يبادر بمثل هذه الخطوة •

واذا كانت الزوبعة العربية هى الظاهرة وهى التى تغطى على الزوبعة المشابهة المنتظرة داخل اسرائيل أو بين اسرائيل وحليفاتها (الولايات المتحدة وأوروبا) فان النتيجة المنتظرة لمثل هذه الخطوة هو أن يبدأ هذا التفكك فى خط متوازى مع اعادة التضامن العربى • وهو منتظر بقدر ما تكون هذه الخطوة مبنية على دراسة بعيدة المدى ومثابرة مستمرة فى تطبيقها • وهذا المحك الذى يفرق بين كون هذه الخطة مجرد تغيير تكتيكى مؤقت أو (كما يحاول أن يؤكد البعض) ومجرد خطوة انهزامية واستسلامية وبين أن تكون خطوة تعبر عن نضج سياسى حقيقى وتعبير عن رغبة حقيقية فى نقل الصراع الى مستوى أقل بدائية وأكثر نضج •

ولعل هذا النضج يتأكد بكونها خطوة مصحوبة بالدراسة والترقب وليس بالانفعال والتفاؤل المبالغ فيه (أو ما يقابله من تشاؤم مبالغ فيه) • فالنقلة فى جوهرها ليست نقلة من حالة حرب الى حالة سلم أو من حالة شر الى حالة خير بقدر ما هى نقلة من حالة

صراع بالوســـائل البدائية والمادية الى حالة صراع بالوســـائل المتحضرة والمعنوية ، ومن حالة صراع مطلق الى حالة صراع مع حوار بل وتعـــاون ٠

فقد انتقلنا مع باقى العـــالم من وقت كان فيـــه من ليس معى فهو ضدى الى حالة من الحوار المتبادل بين الاعداء والصراع بين الاصـــدقاء ٠ فهـــا هى ذى الولايات المتحـــدة تتوافق مع الاتحـــاد السوفيتى وتنشىء الاتصـــال مع الصين بينما رأينا ميلاد الصراع بين الصين والاتحاد السوفيتى ٠ واليوم نحن نقبل على خطوة نرى فيها بوادر الوفاق بين الاطراف المتصارعة فى الشرق الاوســـط بمبادرة مصر مع اسرائيل بينما نرى بوادر الصراع بين الدول العربية وبعضها ٠ ولما لا ؟ ٠ أو ليست هناك بعض الظروف المشتركة التى تنشىء ارتباطا للمصـــالح بين الاعداء واختلاف المصـــالح بين الاصـــدقاء ؟ ان مصر واسرائيل كلاهما يتميز بثـــروة العمـــالة والتكنولوجيا فى مقابل ثروة المال الســـائل التى تتميز به أغلب الدول العربية ٠ ففى الحالة الاولى بات واضحا أن المزيد من الانفاق بالمال والدم على الحروب لم يعد يخـــدم مصالحهما بقدر ما يخدم مصالح أطراف أخرى خارجية ٠ وفى الحالة الثانية فقد بات واضحا ان العلاقة بين ثروة العمالة وثروة السيولة المالية فى تناقض يجعل العاملين يزدادون فقرا وأصحاب المال يزدادون ثراءا لدرجة أصبحت العلاقة بينهما علاقة استغلال ٠

ولعله من مظاهر النضج أن نستطيع رؤية الخير حيثما كنا نرى الشر فقط ونرى الشر حيثما كان الخير فقط ٠ ولعل الانعكاس الداخلى لمثل هذا الموقف الناضـــج هو قدرتنا أيضـــا على قبـــول تعـــدد الآراء ٠

قبـول الآخر : فى الماضى

نظـرة هادئة بعـد حمى الدفاع
والهجوم على عبد الناصر

صدق القول أن من عرف نفسه قد عرف ربه · فانه من غير الممكن أن ننظر الى النفس البشرية بعزلة عن الوجود الخارجى الذى يكون أرضـيتها ، فهى مرآة لما هو خارجهـا ، والخـارج بدوره اسقاط لما بداخلها ·

فاذا كان وجود النفس ازاء الارضـــية الخارجية هو هذا الوجود الذى ينفى الخـارج لكى يؤكد الداخل ـ وبهـذا يرســم حدوده ـ فان هذا الوجود يصبح اذا وجودا متعارضا مع الخارج ، وفى تباين معه · ومن واقع هذا التضاد فان ما تراه النفس خارجها ليس الا اسقاطا لما هو بداخلها · فاذا كان وجود العالم الخارجى حقيقة فانه وجود يتعارض فى هذه الحالة مع الداخل فينظر اليه على أنه آخر معادى له ·

أما من حيث أن النفس ما هى الا جزء من الوجود الكلى وامتداد له ، وليست فى كونها مجرد وعى بالتعارض مع الوجود ، اذا فهى حيثما تكون فى حالة تناسق وتوحد مع الوجود الخارجى ـ وهى حالة يمر بها كل من مر بالخبرة الصوفية ـ فانها لا تعى الخارج فى حالة صراع وتضـاد · بل أن « أنا هو هذا » وينطبق القـول أنه « ليس فى الامكان أبدع ممـا كان » · غير أن الخبرة الصـــوفية لا تكتمل بالتوقف عند هذا التوحد والذوبان فى الكون ـ والا تكون

النتيجة المنطقية الوحيدة هى حالة الفناء التام ولما كانت النفس ما زالت تمارس وجودها ـ ولو على الاقل من خلال الوجود الجسدي ازاء الخارج ـ فان الوعى الكونى لا يكتمل الا بأخذ هذه الحقيقة فى الاعتبار ، فالوعى هو الوعى بالكل فى نفس الوقت الذى نعى فيه الجزء أى الوعى الكونى مع الوعى الفردى • أى أن النظرة الموضوعية للاشياء من هذا المنطلق النفسى هى أن نعى الوجود فى تناسق مع النفس فيصبح أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ولكن فى نفس الوقت أن نعى الوجود فى تعارض مع النفس فيصبح أن هناك فى الامكان أبدع مما هو كائن •

فالقدرة على تقبل الوقائع ، من حيث أن ما حدث حدث لانه كان لابد أن يحدث ، هى جوهر هذه النظرة الموضوعية ، الا أننا ضمن هذه الموضوعية نرى أن الوجود الفردى المتعارض بالتالى مع ما هو ضده ، يكون جوهره رفض الواقع والرغبة فى تغييره • وتغيير الواقع هنا يعنى تغيير الواقع الحالى ، اذ أن ما حدث وتم حدوثه لا يمكن تغييره • وأى محاولة لذلك هى انكار لحقيقة هذا الواقع التاريخى وهى بالتالى ومجرد محاولة اسقاطية من النفس فى سعيها القاصر لتغيير واقعها الحاضر الخارجى • وهذه المحاولة الاسقاطية ما هى الا تغيير فى رؤية الواقع • وليست تغييرا فى الواقع نفسه أى هى ضرب من الهروب الى الخيال ازاء العجز أمام مواجهة الواقع •

من هذه المقدمة نستطيع أن ننتقل الى النظر الى المحاولات المختلفة لفهم وتقييم عبد الناصر سواء كشخص أو كرمز لمرحلة تاريخية • نستطيع أن نقول أن الفهم هو محاولة لتقبل الواقع التاريخى وأن ما حدث فى هذه الحقبه التاريخية حدث لانه كان

لابد أن يحدث وليس لمجرد ســوء الحظ أو الصـدف العشوائية ·
أى أنها محاولة لفهم التاريخ دون هجـــوم أو دفاع · الا أن
هذه المحاولة طالما أن الذى يقوم بها شخص بالذات موجـــود فى
الحاضر فانه لا يمكن فصـلها عن خصـائص هذا الوجود الذاتى
المتعارض مع الواقع الحالى ، والســاعى الى تغييره · فانه اذن
بنظرته الموضوعية الى الماضى لن يســتطيع أن يتجرد من الذاتية
تماما ، لانه سوف يرى التاريخ من الزاوية التى تعبر عن وجوده ،
وهى النظرة التقويمية التى تعبر عن موقف صاحبها ازاء واقعة ·
فليس هناك مجــال اذا للقول بأن هذا كان يجب أن يحـــدث أو أن
هذا كان صوابا أو هذا كان خطأ بل ان ما حــــدث حـــدث لانه
كان لابد أن يحدث (ليس فى الامكان أبدع مما كان) ولكن فى نفس
الوقت وبحكم وجودى كطرف فى صراع قائم فهنـــاك فى الامكان
حدوث أشياء أستطيع أن أختار من بينها وأن أفضل بديلا عن آخر
(أى أن هناك فى الامكان أبدع مما هو كائن) ·

فالمرء كذات فى تضاد مع الواقع ويرفضـــه وقد يرغب فى تغييره
فى اتجاه نحو نظرة مستقبليه تختلف عن الحاضر والماضى · وهو
موقف عادة ينعت بالتقدمية أو الثـــورية · كما أنه يرفض الواقع
ويرغب فى تغييره ساعيا وراء العودة الى الماضى أو على أحسن
الفروض لابقاء الواقع كما هو وهذا اعادة موقف يوصف بالمحافظة
أو اليمينية ·

ومن هذا المنطلق اليمينى أو الثورى تجاه الواقع فان النظرة
الى الماضى القـــريب (عبد الناصر) سوف تتلون بالتـــالى
بموقف الذى ينظر ويقيم ، وســوف يصـــور الماضى على حسب
تأثير هذه الصـــورة على موقفه الحاضر · فاذا كان مهاجمــا

الماضى فلعل ذلك كله قد ينبع مـ نموقفين متضادين : الاول هــو الموقف التقدمى الذى يرى فى الحــاضر امتدادا للماضى ويرغب فى تغيير الاثنين معـا فى اتجاه مستقبلى · والثانى رجعى ·· يحلم بالعــودة الى ماض بعيـد قد أفل نجمه · وحل محله الماضى القــريب وامتداده فى الحاضر · أما اذا كان مدافعـا فان ذلك ايضا قد ينبع من موقفين متضادين : الأول من موقف تقدمى يرى أن الحاضر يحمل موقفا مرتدا عن الاتجاه التقدمى الذى كان يمثله الماضى القريب ، والثانى من موقف رجعى يخاف التغيير ويسعى الى العودة الى الماضى القريب ·

فاذا طبقنا هذه القواعد على موجة الهجوم والدفاع الموجهة الى عبد الناصر أو ما كان يمثله التى اجتاحت المناقشات السياسية فى الاعوام الاخيرة (ولعل بذورها بدأت بعد سنة ١٩٦٧) فلعلنا نجـد تفســيرا لمـا قد يبدو من تناقضات فى بعض المواقف · فالهجوم على عبد الناصر من الموقف التقدمى كان يرى أن عبد الناصر يمثل اتجاها محافظا استغل المد الثورى الموجود ليركبه ويسرق شعاراته ليكسب بذلك الجماهير الراغبة فى الثورة ويضرب بهـا منافسيه فى السلطة ويحل محلهم · ثم يبقى على الوضع القائم الذى أصبح ممثله الجديد · فثورته على الحكم اذا هى من أجل الوصــول اليه وليست من أجل تغيير طبيعته ، واعتراضه ليس على وجود الظلم فى حــد ذاته ، ولكن على وجوده هو فى دور المظلوم لا الظالم والمحكوم لا الحاكم · هذه النظرة لا تقتصر على جمال عبد الناصــر فحسب ولـكنها نظـرة تـكاد تـكون عامة لأى سلطة ، وهو موقف أشـبه بموقف الثورة الدائمة التى تصر

على البقـــاء فى المعارضة وخارج السلطة طالما أن كيان المجتمع يحتاج الى هذا الشكل الهرمى الذى يجعل السلطة فى يد فئـــة محدودة مستغلة لغالبية الشعب · وهى نظرة تعارض عبد النـاصر من حيث أنه يمثل جذور الحاضر المراد تغييره ·

ولكن لمـاذا الهجوم فى المقام الأول ما دام هنـــاك اعتراف بالاشتراك فى المسئولية فى كل ما فعله عبد الناصر ، وما دام هناك وعى بأن الهجـوم على المـاضى القـريب هـو فى جوهره هجـوم على الحاضر يجب الاحتراس منه من جانب السلطة ؟ لعل الاجابة هنا هى ان النظام السابق كان قد وصل الى قمة جبروته فى سنة ١٩٦٧ فاكتشف فجأة وبجرعة مكثفة ان جبروته ليس الا جبروت النمر الورقى ، ولم يكن هناك مفر من ان يتغير أو ينهار · ولكن التغيير فى النظام يحتاج الى تغيير فى الوجوه · واذا كان قد سبق للنظام أن نجح بواسطة عملية تغيير الوجوه هذه فى مد بقائه لمدد متفاوته فى مواجهة ازمات مختلفة ، فلعل أزمة ٦٧ كانت أشدها وأكثرها حاجة الى تغيير أشمل فى الوجوه · من هنا كان التغيير يشـمل النـائب الأول لرئيس الجمهـــورية الـذى كان تجســيدا للبيروقراطية العسكرية التى وصل حجمها الى درجة تفوق قيمتها الحقيقية · وباقتلاع هذا الورم شبه السرطانى نجح النظام فى الابقاء على نفسه لفترات أخرى · الا ان تغيير الوجوه لم يكن شاملا بالدرجة الكافية · فالنظام لايستطيع ان يقوم بدور اشخاص ، ولذا كان لابد له ـ وخاصة بعد اقتلاع البيروقراطية العسـكرية من أن يستبدلها بوجوه أخرى تحل محلها · غير أن نوعية العلاقات التى بقيت بعد انهيار التسلط العسكرى بقيت كما هى ولم تتغير بدرجة كافية رغم انهيار الوجوه المجسدة له · وعلى هذا فقد حلت وجوه

بدل أخرى من بقايا النظام · تمثل اتجاها آخــر بداخله وهــو البيروقراطية المدنية التى أخـــذت هى الأخرى تتورم وتنتشــر كالسرطان ساعية لاعادة احياء البيروقراطية العسكرية ، ولكن بدرجة تكفى فقط لجعلها قوة قابلة للاستعمال دون ان تكون القوة المتحكمة · نستطيع ان نقول اذن ان النظام بقى وانه بقى بفضل قدرته على تغيير الوجـــوه وما تمثله من قـــوى بالتالى حينما تتعارض مصالح هذه القوى مع مصالح النظام ككل ، الا ان هذا التغيير لم يكن كافيا وكانت البيروقراطية المدنية هى الأخرى ، فى تضخمها على حساب المجموع ، فى طريقها لأن تصبح قوة ذاتيـة تتعارض بمصالحها مع مصالح المجموع · وصدمة ١٩٦٧ لم تعالج بعد وهى الصدمة التى صدمت النظـــام وزعـــزعت الثقة بـــه ، والبيروقراطية المدنية لم تخطو بعد خطوة ولو تضميدية لتخفيف آثار هذه الصدمة اللهم الا بعض التنازلات الطفيفة فى مجـــالات الاستهلاكيات والحريات المحدودة · ووضح ان استمرار هذه القوة الجديدة سوف يؤدى مرة أخرى الى كشف النظام وانهياره ومن هنا كان لابد للنظام ان يفرز من داخله قوة أخرى تعارض هـذه القوة البيروقراطية المدنية وتعطى المزيد من التنازلات فى صـــورة المزيد من الحريات الاقتصـــادية والسياسية ، أى بتوســـيع دائرة المشاركة فى قمة الهرم (فالحريات الاقتصادية والسياسية فى نظام ما تتركز فى الايادى القليلة عند قمته) · ان ثورات العدالة الاجتماعية هى الطفرات التى يحدث فيها تغيير فى الوجوه التى تستحوذ على هذه المزايا وهو تغيير قد يأخذ شكل زيادة عدد الوجـــوه باضافة الوجوه الجديدة مع استبدال بعض الوجوه القديمة ، ومن هنا نشأ هذا الصراع على السلطة الذى انتهى بما يسمى « ثورة التصحيح »

فى ١٥ مايو ١٩٧١ وانتهى بتولى القوى التى تنادى بتوسيع دائرة المشاركة وذلك بواسطة اطلاق المزيد من الحـــريات الســـياسية والاقتصادية • ونظرا لأن هذه الحريات افادت من كانوا محرومين منها فى الحقبة السابقة للنظام • وبالتالى فان هجومها اتجه نحو تلك الحقبة بالذات من النظام ، أما انتماؤها فهو للحقبة الحالية • ولقد كانت هذه الفترة ضرورية لـكى تستتب الحقبة الجديدة من النظام • ولكى تكتسب الوجوه الجديدة الصورة المبتسمة المتسامحة وغير المستحوذة على السلطة وغير المتسلطة ، كان لابد لهذه الحقبة الجديدة من اطلاق تلك الحريات ، الا ان تلك الحريات صـــارت كفاتح الشهية وازدادت حملات الهجوم والدفاع المختلفة بشـــكل يهدد النظام القائم ذاته • فالهجوم على الماضى القريب ، سواء كان لحساب الحاضر أو لحساب الماضى البعيد ، أفرز دفاعا عن الماضى القريب على حساب الحاضر علاوة على بذور الهجوم على الحاضر من أجل المستقبل ، الأمر الذى صار مهددا للنظام الحاضر بعد أن وطد اسباب قوته بحيث لم يعد فى حاجة الى الهجوم على الحقبة السابقة له ، وخاصة انه مع استتبابه اصبح مدافعا عن ابقاء الحال كما هو ، أى ابقاء الهرم فى صورته الحالية ومقاومة أى محاولات للتغيير الجذرى وهو لب ما كان يحدث فى الحقبة الســـابقة وان اختلفت الوسائل من حيث الدرجة وليس بالضرورة من حيث النوع • ومن هنا كان لابد من ايقاف الحملة الهجومية على الماضى القريب بل الذهاب خطوة بعد ذلك واظهار الجانب الآخر من الحقيقة وهو ان الحاضر ، وان كان افرازه ناتجا عن درجة من التناقض مع الماضى القريب ، الا أنه فى جوهره ليس الا امتدادا له فثـــورة التصحيح ليست ارتدادا انما هى امتداد لثورة يوليو الاصلية • ومن هنا كان لابد

من الحد العام من الهجوم على أى شيء – ماضٍ بعيد أو قريب أو حاضر – اللهم ان كان الاستثناء هو الهجوم على هذا الهجوم ذاته ·

ولكي لا يتخلى النظام عن مؤيديه الذين هاجموا الماضى القريب لحسابه فانه لجأ الى تقسيم الماضى القريب الى شقين : النظام « الأبوى » (*) الجيد ممثلا فى شخص عبد الناصر ومؤيديه والنظام « الأبوى » السىء ممثلا فيما يسمى بمراكز القوى والتى صورت على انها كانت فى تناقض وصراع مع عبد الناصر (الذى كان تجسيدا « حقيقيا » للثورة) لأنه كان ينوى أن يتخلص منها وبالتالى فان النظام الحالى ما هو الا امتداد لعبد الناصر وللثورة التى تجسد آمال الجماهير فى التخلص من الطغيان والاستعمار والفساد والحصول على الحرية والعدالة الاجتماعية ·

ولعلنا نستطيع هنا ان ننحو بمجرى الحديث الى الاشارة الى الأسس النفسية لمثل هذه العملية · فعلى مستوى الفرد نجد ان الطفل فى « صراعه » و « ارتباطه » بالسلطة المتمثلة فى الأم فى السنوات الاولى ثم الأب الى حد ما اثناء ذلك ثم بدرجة أكبر فيما بعد ، لا يستطيع ان يتحمل الثنائية الوجدانية التى تنتج عن « تعلقه » بالسلطة واعتماده عليها (فهى مصدر الحماية والرعاية والالفة له) وبين تمرده عليها (فهى تمثل التحكم فى زغباته وتلقائيته) · وكلما كان النقيضان عنيفين – أى الحب والكره – كلما وجد الطفل صعوبة فى الجمع بينهما · فاذا اعتمد تماما على شخص لايحبه فهو يعرض

(*) نستخدم هنا كلمة « أب » كتعبير عن الأب أو الأم بغض النظر عن الجنس ·

نفسه للسحق والقهر ويسلم نفسه هشا ضعيفا لشخص عدوانى ٠
واذا حاول أن يمرد هذا الشخص فى الوقت الذى يعتمد عليه تماما
ان يدمر هذا الشخص فى الوقت الذى يعتمد عليه تماما فسوف
فسوف يقضى على مصدره الوحيد للرعاية والحماية والدفء ، وازاء
هذا الصراع فان الطفل يلجأ الى حلول مختلفة ، منها ان يصور السلطة
منقسمة فى صورة شخصين : الشخص الجيد الذى يمكن الاعتماد
عليه والشخص السيء الذى يجب تجنبه أو مقاتلته وهى صفات
لا تمت بالضرورة الى الاشخاص الذين تسقط تلك الصفات عليهم ٠
ونرى مظاهر تلك الوسيلة الدفاعية فى مستويات مختلفة كأن يمجد
الطفل أباه ويرى الشخص السيء فى عمه أو مدرسه أو الشاويش
أو الدكتور أو « البعبع » أو العفريت او الشيطان الخ ٠ ونرى جاذبية
القصص الخيالية للاطفال تتسم بهذه الصفة اذ نجد فيها الطفل
المغلوب على أمره ـ مثل « سنو وايت » أو « سندريلا » ـ لا يكره
الأم لكنه يستبدلها بزوجة الأب بينما الأم هى هذه الصورة الخيالية
الممجدة لشخص غائب عن الوجود ٠

ونستطيع فى سيكلوجية الجماعات ان نتصور شيئا موازيا
لذلك ، فالجماعة تجسد آمالها الاعتمادية فى صورة القائد البطل
الذى سوف ينتشل الجماعة من بؤسها ولكن مثل هذا القائد البطل
لابد أن يثير الحسد والكره من جانب من نصبوه فى هذا المكان ٠
وهم ازاء اعتمادهم الطفلى عليه وكرههم الطفلى له لا يستطيعون
تحمل هذه الثنائية الوجدانية اذ كيف يتخلصوا من هذا الذى سوف
ينقذهم ؟ لذلك تلجأ الجماعة الى شطر القائد الى وجهين : الوجه
الأبوى الجيد الراعى الحامى الذى يمجد وتضفى عليه صفات قد

لا تمت الى حقيقته بشىء والأب الذى تضفى عليه الصفات المعاكسة وقد يجسد فى شخص من داخل الجماعة أو خارجهـــا على حسب درجة تفاعــل الجمــاعة مع البـيئة التى توجـد فيهــا • فاذا كانت الجماعة منغلقة عن العالم الخارجى فان المواضيع السيئة الداخلية تأخذ مكان الصدارة وينصب عليها الهجوم • واذا كانت الجماعة فى تفاعل مع العالم الخارجى فان العدو الخارجى هو الذى تتحول اليه هذه الطاقة العدوانية •

فاذا ترجمنا هذه المفاهيم النفسية الفردية أو الجماعية مرة أخرى الى الجانب الذى بدأنا بالحديث عنه وهو الهجـــــوم على عبد الناصر من موقع تقدمى وهو الموقع الذى يرى أن الماضى مضىء لأنه أدى وظيفته وانه تحول الى حاضر اصبح امتدادا له وأصبح لزاما عليه هو الآخر ان يتطور ويتحول الى ما ســـــوف يخلفه فينتهى هو أيضا ليفسح مكانا للمستقبل •• نجد من هذا الهجوم اذا ليس هجوما طفوليا يرى الماضى سيئا والحاضر جيدا أى انه لايقسم الأب الى أب سىء فى الماضى وأب جيد فى الحاضـــر كما انه ليس هجوما على الماضى القريب لحساب الحاضر فقط • ولكنه كان هجوما مضادا ازاء المحاولات المحافظة التى تدافع عن الماضى على حساب الحاضر أى المحاولات اليمينية (حتى ولو كانت تتستر وراء شعارات يســارية) والتى تسعى للارتداد الى المــاضى القريب على حســـاب الحاضر • ولانه هجوم مضاد لهجوم طفولى فهو يشترك معه فى الخاصية الطفولية ، وفى كلتا الحالتين ــ الهجوم والهجوم المضاد ــ فان الانفعال هو الذى يحكم على حساب العقل وبالتالى فان النظرة لابد لها وأن تكون بعيدة عن الموضوعية واضحت صفة الطفلية هى الغالبة ، سواء اليسار الطفولى أو اليمين الطفولى • أى اننــا

نستطيع ان نقول انه كلما قلت حدة الانفعال فى الهجوم تحـــول الهجوم الى نقد هادىء وبناء وكلما قلت ظاهرة الاطلاق أى تصوير السيء على انه سيء مطلق والجيد على انه جيد مطلق ، كلما اقتربنا من التقويم الموضوعى للاشياء الذى يخلو من التقويم القاطع ويرى الآشياء بجانبيها ، السيء والحسن ٠

وبالعودة مرة أخرى الى التشبيه بالنفس البشرية ، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة ، وجدنا أن الطفـــل كلما نضج كلما قلت حدة الانفعالات عنده تجاه السلطة فهو لا يعتدى عليها تماما ، كما لا يريد تدميرها نهائيا وكذلك لم يعد يراها ســـيئة مطلقا أو جيدة مطلقا ، فلم يعد يلجأ الى هذه الوسيلة الدفاعية التى تشطر الاب الى وجهين : وجه سيء ووجه طيب ٠ فالطفل مع النضج يصـبح أكثر قدرة على معارضة أبيه ، والتعبير بالتالى بطريقة بناءة وفعالة عن نزعاته العدوانية تجاهه كما أنه أصبح قادرا على رؤية مزاياه دون تمجيد أو اعتمادية صارخة ٠ اذا فاننا نرى هنا أيضـا مع النضج ظاهرة انخفاض حدة الانفعالات وازدياد القدرة على رؤية الاشياء كما هى بجوانبها المختلفة فنرى الخير والشر مجتمعين فى شخص واحـــد ٠

وكذلك على مســتوى الجماعة فاننا نرى أن الجمــاعات كلما نضجت كلما أصبحت قادرة على نقد قائدها ٠ وهى بقدر ما تقلل من اعتماديتها عليه وتمجيدها له بقدر ما تقلل من نزعاتها التدميرية تجاهه وكلما أصبحت قادرة على الحد من شـدة الهجوم أو المدح وأكثر قدرة على رؤية الجـانبين السيء والحســــن وعلى تقويمه موضوعيــا ٠

اذا فان الموقف اليسارى الناضج بهذه المقاييس هو الموقف الذى يستطيع أن يرفض الماضى والحاضر على السواء بالقدر الذى يبقى على حافز التغيير والتطور نحو مستقبل أفضل ٠

ولهذا فهو رفض موضوعى وهادىء ٠ لا يتصف بحـــدة الانفعالات أو بالقطيعة فى الاحكام فهو لا يهاجم بشـدة أو يدافع بشدة وكلما زاد اليسار طفولية كلما كان هجومه أو دفاعه أعنف وكلما كانت أحكامه قاطعـة ، اذ أن عنف الانفعـالات الذى يفـوق الحاجة الموضـوعية للتغيير (اذ أن الفعل أى التغيير مســتحيل تنفيذيا بدون درجة من الانفعال) وقطعية الاحكام التى فيها تشويه للواقع ـ كل هـذا لا يجعله فعـالا فى تغيير الواقع ومن ثم فهـو لا يخدم التطور بانفعالاته الحادة أو قطعية أحكامه واذا كان يفعل شيئا فانه بطريقة غير مباشرة يشترك مع اليمين فى انسلاخه من الواقع ليحيا فى وهم المستقبل (فى حالة اليسار) فى مقابل وهم الماضى (فى حالة اليمين) ٠

وبالانتقال الى المواقف الهجومية من عبد الناصر مرة أخـــرى فاننا نرى اليسار الناضج فى هجومه على عبد الناصر انما كان يفعل ذلك من موقع النقـد الموضـوعى الهادىء ـ وضـمن محاولة لرؤية الحقيقة بجانبيها السىء والجيـد ٠ وهـو أن كان قد غلب الهجوم أحيانا فانه يفعـل ذلك من موقف رد الفعـل فى مواجهة الدفاع الطفولى الذى يمجد الأب فهو هجوم أقرب الى النقد منه الى محاولة تخيل الأب السىء فى مقابل الأب الجيـد ، وأخـيرا فانه فى نقده لم يفصـــل بين عبـد الناصر كممثل للثـورة وبين بعض

الانحرافات التى مارسها من خلال « مراكز القوى » (الاب السىء) انما يرى الظاهرة كلية ومتكاملة · فعبـد الناصر ومراكز القوى التى كانت تحيط به هما وجهين لعملة واحدة ·

واذا انتقلنا درجة فى الطفولية فى موقف اليسار فاننا سوف نجد انه يهاجم الماضى القريب والحاضر على السواء ويعيش فى وهذا مستقبل متخيل فيجد بهذا مبررا للانسلاخ عن الحاضر وانكار للماضى وهو أيضا يشــطر موضــوع حبه الى الموضــوع السىء (الماضى والحاضر) والموضــوع الجيد (المســتقبل) ـ وبهذا فهو لا يرى الواقع كما هو وانما كما يتخيله ويتمناه ويبرر به وجوده اليائس · فما يملكه ـ أى ماضيه الذى أصبح حاضره ـ لا يحبه ، وما يحبه ـ أى مستقبله ـ لا يملكه وهو يجد مبررا فى هذا الشقاء للبقاء كما هو دون فعـل وان فعل شــيئا فهو من منطلق الاحكام المطلقة والهجوم الانفعالى الحاد الذى يؤدى الى التدمير فحسب وهو يتميز بالعنف والقطعية والانســلاخ من الفعـل والفاعلية فى الحــاضر ·

هذا عن الموقف الهجومى اليسارى من ماضينا القريب ممثلا فى الهجوم على عبد الناصر ، (أو مراكز القوى أو كليهما) · فماذا عن موقف الدفاع اليســارى الذى شــاهدناه فى الآونة الاخيرة ؟ الظاهر أن غالبية المدافعين عن عبد الناصر كانوا على الاكثر من بين صفوف اليسار التقليدى كبعض الكتاب الماركســيين السابقين (وليس كلهم) فكيف نفسر هذا الدفاع اليسارى عن عبد الناصر ؟ اذا أخذنا بمفهوم اليسار الذى نتحدث عنه فى هذا المقال فانه يعنى

الرغبة فى التغيير المستمر ، أى الثورة الدائمة ، فلا يعقل أبدا أن يكون المرء يساريا ويحلم بالعودة الى الماضى أو يتصور أن «الثورة» تحققت أو كانت بالاعس وكانت الدنيا جنة · فهذا الارتياح من الثورة الدائمة والرغبة فى الوصول الى حالة من الاستقرار والوضوح يكون فيها الابيض والاسود والاحكام قاطعة هو فى الحقيقة ردة عن طبيعة الموقف اليسارى الثائر باستمرار والراغب فى التغيير الدائم · وهو موقف يأخذه الثائر بعد أن يخمد ويتعب من الثورة ويحقق ما كان فى متناول يده هو من ثورة الا وهو أن يثور حتى يعيد تشكيل الاشياء بحيث يتغير موقفه من موقع المظلوم الى موقع الظالم الذى يريده بدوره البقاء على الوضع القائم لصالحه · وهو نفس النقد الذى يمكن توجيهه الى عبد الناصر او أى ثائر آخر وصل الى السلطة فاستبد بها بحيث لم يسمح لآخر أن يثور عليه تحت دعوى أنه هو الثائر الأوحد وأن أى ثورة أخرى ما هى الا ثورة مضادة · وهو نفس الموقع الذى يجلس فيه حكام الصين حتى تتراكم الثورة فى القاعدة فتخرج وان كان خروجها محكوم بضغط على مفتاح الضوء الاخضر · فتطيح بهؤلاء المستبدين الجدد (وهو الاسلوب الذى كان يلجأ اليه عبد الناصر كصمام أمن لتحويل الثورة من التوجه الى شخصه بأن تتحول ضد مراكز القوى او المنحرفين) ولعل هذه الفئة من اليسار هى التى كانت فى أوج شبابها تدعو الى التغيير والثورة ثم تحولت بعد ذلك أن حققت مكاسبها الذاتية من الثورة الى نظام قائم جديد يتشبث بمكاسبه ·

يمثل هذه الظاهرة (وهى ظاهرة استقرار الثورة بعد حصولها على بعض المكاسب) صعود عبد الناصر واستقراره وهو بالنسبة

لهم خطوة الى الامام وجدوا فيها الانصاف نوعا بارتفاعهم نحو قمة الهرم وارتفع معهم على السلم بعض مؤيديهم من العمال والفلاحين فتحولوا معهم الى « القطط السمان » (ثروة أو سلطة) ٠ وبناء عليه فانهم لا يريدون أى تغيير بعد ذلك فليس فى الامكان أبدع مما هو كائن وأى ثورة على مثل هذا الوضع ما هى الا ثورة مضاده تريد حرمان الفلاحين والعمال أجمعين من مكاسبهم ومن ثم يجدون المبرر لهجومهم الشامل على تلك الثورات المضادة وخاصة اذا كان أغلب القائمين بها هم من رجال الماضى البعيد (قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢) والذى يتيسر اثبات كونهم مغرضون يريدون العودة الى أوضاعهم المميزة فانهم يهاجمون عبد الناصر دون موضوعية وأنما هو هجوم مرتبط بمصالح مادية واضحة وهى التى تبلورت فى هذه الظاهرة التى أفرزت أصحاب الملايين الجدد والقطط السمان ٠ ان فى الرد على هذا الهجوم على عبدالناصر درجة من الموضوعية فهم يرون الخط الذى سار عليه عبد الناصر ينحرف بل ينعكس ويخافون من فقدان المحاسن والمكاسب مع المساوىء الا أنهم يقصرون ردودهم على اليمين الطفولى (الذى يريد العودة الى الماضى ما قبل ١٩٥٢) فهم يشتركون معه فى اللغة الطفولية مع فارق أنهم يريدون العودة الى الماضى القريب (ما بعد ١٩٥٢) خاصة اذا كان الحاضر يعنى حرمانهم من بعض مكاسبهم أو يزلزل أماكنهم فى قمة السلطة ٠ أى أن موقف هذا اليسار المدافع هو فى جوهره مبنى على أن ما كان يسارا فى عهد ما سوف يستمر يسارا بعد ذلك متجاهلين أن اليسارية نسبية وتمثل التغيير الدائم وأن ما تحقق واستتب مهما كان ثوريا فى وقته لابد أن يتغير ، وأن التغيير ليس بالضرورة فى اتجاه واحد بل أن التغيير يأخذ الصورة الحلزونية أو اللولبية

فالخطوتان الى الامام قد تتبعها خطوة الى الخلف والنهار يتبعه ليل والثورة تتبعها هدنة والحرب يتبعها سلام فالتقدمية اذا ليست بالضرورة أن يكون التقدم فى خط مستقيم واتجاه واحد لان هذا يتنافى مع الواقع الذى يتصف بالموجية واللولبية ، فلعلنا نستطيع أن نرى أن التأخر والارتداد والانحراف ما هى الا حلقات طبيعية جدا فى سلسلة التطور ولعل عدم القدرة على رؤية ذلك وتقبله هى ضمن اللاموضوعية والرغبة الطفلية فى الاستقرار والقطعية والوضوح والثبات فى الرؤية الذى يتنافى مع واقع التطور والواقع المتطور • فتطور الاشياء هو أن يحدث الشيء فيولد نقيضه فيتصارع معه حتى ينتج الجماع الذى يولد هو بالتالى نقيضه وهكذا • فالشيء لابد أن يتبعه (بعد مصاحبته) النفى له فيتبع هذا حالة نفى للنفى وهكذا • وهو وصف استخدمه محمد سيد أحمد (الاهرام) فى محاولته للتقويم الموضوعى للاتجاه الحاضر النافى لما سبقه بأننا لابد — نظرا لسلبيات الماضى القريب) — أن نمر بمرحلة النفى لكى نستطيع أن نعود الى ايجابياته بنفى هذا النفى • فالذى يحدث الآن من انفتاح وتصالح مع الغرب ليس بالضرورة ردة فى حد ذاته بقدر ما يمثل الخطوة الى الخلف التى لابد منها لكى نستطيع أن نخطو الى الامام وذلك لان السير للامام استنفذ نفسه وأصبح عملية تعثر واستعجال • ولعل التشبيه هنا على سبيل المثال هو فى خطوة مثل تأميم المصانع فاذا نظرنا الى هذه الخطوة على أنها للصالح العام فلا بد أن نأخذ فى الاعتبار أن هناك ظروفا يكون التأميم فيها ضارا أو يتضح بعد تجربة ما فى التأميم أن الخطوة سابقة لاوانها • فاذا كانت البلد تفتقر الى المصانع فان تأميم الفقر لا يغنى أحد ، واذا اتضح فيما بعد أن لابد

من تشجيع انشاء المصانع لكى يتكون هناك شيء يستحق التأميم فيما بعد ، وأن خير وسيلة لانشاء المصانع هى العودة الى الحوافز الرأسمالية بشكل أو آخر ، فلعل هذه الردة التى هى نفى لما سبقها هى أفضل وسيلة لتأكيد صحة ما سبقها ، وبازدياد المصانع وازدياد الفقراء فقرا وازدياد الاغنياء الاثرياء ثراء سوف يصبح التأميم ضرورة مرة أخرى • الا أن الفرق هنا هو وجود شيء يستحق التأميم • أما اذا ثبت غير ذلك وهو أن الانفتاح والصلح مع الغرب لم يزد المصانع وكل ما فعله هو خلق طبقة جديدة من التجار والوسطاء الذين لا يساهمون فى الانتاج ولكنهم يثرون عن طريق تسهيل عملية تسويق منتجات الرأسمالية العالمية لكى تستهلك بواسطة الشعب وباثمان باهظة فلعل هذا النفى (الانفتاح) هو الذى بفشله مع الزمن سوف يفسح الطريق الى الحاجة مرة أخرى الى التأميم وعدم الاعتماد كلية على الغرب ، أى أن هذا النفى هو الذى سوف يؤدى الى نفى النفى • الا أن هناك نوعين لنفى النفى أحدهما هو نفى النفى فى مولده والآخر هو نفى النفى بعد ميلاده ونموه • ولعل الاول هو الذى يعبر عن الوقف اليسارى المدافع عن الماضى القريب على حساب الحاضر فهو ينفى النفى الذى يقوم به الحاضر ازاء الماضى القريب ولكنه ينفيه قبل أن ينضج وهو بذلك ولا يستطيع أن يتقبل حقه فى الحياة بل وضرورته المرحلية • الا أن هذا الموقف اليسارى ذاته هو الذى يسعى الى عدم استفزاز الحاضر بأن يؤيده فى دعواه أو ادعائه أنه ليس الا امتدادا لما سبقه وأن ثورة مايو تساوى ثورة يوليو وهو بهذا يسعى لابقاء الحاضر متحجرا فى ارتباطه بالماضى ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار هذا الموقف اليسارى يمينا

لعدم قدرته على البحث عن بديل متطور للماضى من حيث هو امتداد للماضى وانعدام الرؤية المستقبلية عنده ، ولعل تفسير ذلك أنه ما دامت هناك ضرورة الالتفاف حول قائد ما فهناك يفضل التمسك بقائد مات أو مسيح شهيد على أن يحلم بقائد لم يولد أو مهدى منتظر وذلك فى غياب قدرته على مواجهة القائد الحالى . فهو ما زال يفتقد القدرة على القيادة الذاتية أو الرضا بالقيادة الحالية ويحلم بالقائد المنقذ البطل الذى يطابق الخيال ولا يستطيع تقبل بشرية القائد الذى هو ليس بملاك أو شيطان وهو القائد الحى والذى تظهر أخطاءه قدر ما تظهر محاسنه واذا كان لابد من قائد حالى فانه لا يستطيع أن يراه على حقيقته ولكن لابد أن يتصوره أما امتدادا للبطل (الميت) أو منافيا له أى أما ملاكا أو شيطانا . وفى كلتا الحالتين نجد الموقف الطفولى . فبينما الموقف اليسارى الطفولى يرفض الاب الحاضر ويحلم بالمهدى المنتظر فينتظر ولا يفعل شيئا نجد الموقف اليمينى الطفولى يحلم بالاب الميت وبالمسيح الشهيد ويحلم بالماضى فلا يفعل أيضا شيئا ، وبالتالى فان كليهما لا يغير ولا يشترك فى الفعل ويكتفى بالرفض .

ولعل وقفة أخرى هنا للنظر الى الظواهر الموازية على مستوى تطور الفرد النفسى تلقى بعض الضوء على ظاهرة النفى ونفى
تطور الفرد النفسى تلقى بعض الضوء على ظاهرة النفى ونفى
النفى . فالتحليل النفسى (أريك أريكسون فى تطويره لنظريات فرويد) يرى أن الانسان يتطور على مراحل منذ الولادة حتى الموت قسمها الى ثمانية وكل مرحلة تتصف بخصائص وصفات وتلتقى مع انجازات مختلفة (نفسية وجسدية واجتماعية) فاذا ما فرغ من مرحلة انتقلت الى التى تليها ومعه خبرة المرحلة السابقة وآمال

المراحل التالية أى أن الفرد وان كان يعيش كل مرحلة على حدة
الا أنه فى نفس الوقت يحصل بداخله امكانيات جميع المراحل .
واحيانا يتعثر نمو الانســـان حينما ينتقل من مرحلة الى مرحلة
أخرى قبل أن ينتهى من المرحلة السابقة الامر الذى يعوقه عن وضع
كل طاقته فى المرحلة الجديدة لان جـزءا منها مشــغول بمحاولة
العودة الى القديم · وقد تكون هذه النزعة الى العودة الى القديم
منبعها أن القديم لم يأخذ حقه بالدرجة الكافية وبالتالى فان الحاجة
ملحة الى العودة اليه لاشباعه · وعلى نقيض ذلك فان الاشــباع
الزائد فى مرحلة ما يجعلها تتثبت فى ذكرى صاحبها على أنها هى
الايام السعيدة التى لا تعوض وعليه فان الاحبـــاط فى الحاضر
سريعا ما يغرى صاحبه بالعودة بالخيال الى حلم الماضى · فالانتقال
من مرحلة الى أخرى يحتم نفيا للمرحلة السابقة كما أن المرحلة
التالية (الاشتراكية) أى أنه يخلق صعوبة فى نفى المرحلة السابقة
التى أشرنا اليها فان الانتقال الى مرحلة قبل اشباع المرحلة التى
قبلها (من الرأسمالية مثلا الى الاشتراكية) فيها شكل من النفى
المبكر للمرحلة الســابقة ومن يتطلب نفيا آخر للمرحلة الجديدة ،
الامر الذى يدفع الفــرد الى العــودة الى المرحلة الســابقة وعلى
النقيض فان التــوقف طويلا مثلا عنــــد مرحلة (عصر طويل من
الاقطاع أو الرأســمالية) يخلق صــعوبة فى الانتقال الى المرحلة
التالية (الاشتراكية) أى أنه يخلق صعوبة فى نفى المرحلة السابقة
الامر الذى يغرى الفرد بنفى الجديد · أى أن التطور يتطلب نفيا
للمرحلة السابقة وأنه سوف يتعرض بعد ذلك للنفى كما أن التعثر
فى التطور هو أيضا يحوى النفى ونفى النفى فهو نفى مبكر لمرحلة
يجعل الانتقال الى المرحلة التالية مصــحوبا بنفى لها منذ البـداية

وبالترجمة مرة أخرى الى التطور الاجتماعى نستطيع أن نتصور أن مصر بانتقالها من مرحلة ما قبل ٥٢ الى ما بعدها وبنفيها لتلك المرحلة من حيث أنه نفى مبكر (أو بتعبير آخر هى استعجال لثورة كانت تختمر على مستوى الجمهور أخذت صورة الفرض من أعلى بدلا من التطور الطبيعى من القاعدة) قد انتقلت الى مرحلة تالية فى نفى مبكر للسابقة مع وجود نفى مسبق ومواز للمرحلة الجديدة ٠

وبناء عليه فلا بد من أن يأتى اليوم الذى يجد فيه هذا النفى السابق الفرصة لكى يعبر عن نفسه وهى مصر بعد مايو ١٩٧١ فثورة التصحيح تحمل فعلا جانبا من النفى (وهو الذى كان فى البداية نفيا مسبقا) لثورة ٥٢ ولكنه نفى ضرورة لتأكيد ثورة ٥٢ ووضعها على مسارها الطبيعى وهو التغيير الحقيقى والطبيعى والذى كان يحدث تلقائيا وتدريجيا على مستوى الجماهير ٠ أى أن النفى المتعمد لبعض أوجه ٥٢ هو أفضل للحفاظ على استمرارها من حيث أنه (على مذهب بيدى ولا بيد عمرو) ينقذ الثورة من تراكم النفى لدرجة الانفجار الذى يؤدى بمساوىء الثورة ومحاسنها على السواء أى أن الموقف اليسارى الفعال هنا يأتى من القدرة على تقبل هذه الحقيقة وما تحويه من الحاجة الى التغيير ٠ أى أنه موقف يستطيع أن يقبل الماضى والحاضر معا وينطلق منهما فى اتجاه التغيير الفعال ٠ وليس موقفا دفاعيا تجاه مسار فى مقابل مسار آخر فالنفى ونفى النفى ما هما الا مرحلتين فى نفس الاتجاه والعبرة بالقدرة على التغيير فى الحاضر واستغلال تيارات التغيير الطبيعية وليس بالبكاء على الماضى ٠ (وهو موقف اليسار التقليدى القديم) ٠

واذا كنا سوف نكتفى نهـا بهذه المحاولة التحليلية لموقف طرفين صورناهما على انهما يمثلان - نسبيا - يمينا ويسارا فتجاهلنا بذلك ما يعرف تقليدا باليمين فذلك يقينا منا أن ذلك اليمين لا يمثل قوة حقيقية لها أى جاذبية ، وليس أدعى الى ذلك مثل موجة الانضمام المحدودة لمنبر اليمين واذا كانت بعض هذه القوى اليمينية تقوم بمحاولتها الاخيرة بواسطة استغلال الدين نظرا لما يمثله من قوة تأثيرية على الجماهير تحت دعوى أن الدين يتعارض مع الشيوعية والماركسية وربما مع الاشتراكية وبالتالى مع اليسارية فان هذه الخدعة لن تدوم طويلا وهى تستغل جهل غالبية الناس بمفهوم اليسار واليمين · ومن ناحية أخرى فان واقع الامر أن ما يعرف بالوسط هو فى جوهره يمين يدافع عن الوضع القائم اذاء أى دعوة الى تغييره وبالتالى فان الصراع الحقيقى هو بين ما هو قائم (لعله الاتحاد الاشتراكى ككل) فى مقابل ما يسعى الى الوجود وكمولود جديد (ويستطيع أن نصفه باليسار أو المعارضة) · فليس بالضرورة أن يكون اليسار شيوعيا واليمين رأسماليا فالاتحاد السوفيتى يحكمه نظام وتتولد فى القاعدة أصوات رافضة لعلها هى اليسار ، والصين تنظر الى الاتحاد السوفيتى على أنه يمين · وفى التاريخ الاسلامى نستطيع أن نرى كيف أن عصر فجر الاسلام ذاته ، كان يمثل على مستوى التطور الاجتماعى والسياسى ثورة يسارية تقاوم الوضع القائم بما كان عليه من ظلم واستغلال وتسلط وفساد فى اتجاه نحو مستقبل أفضل نحو العدالة الاجتماعية والحرية ·

بل نضيف أنه اذا كان هناك أملا فى نمو وتبلور قوة

يسارية فعالة فان ذلك لن يحدث الا من خلال التراث الدينى وعلى النقيض فانه اذا كان هناك أمل للابقــاء على التراث الدينى الا بأن يتحد الدين مع اليسار أو بالأصح أن يستعيد جوهره اليسارى ·

فاليسار ـ أى النزعة الى التطور والتغيير نحومستقبل أفضل ـ هو الوجود والحيــاة والانســانية · وليست المسـألة دعوة الى مستقبل أفضـــل ـ هو الوجود والحياة والانسانية وما هو ضـد التطور الذى مع التحجر ومع الموت · وليست المسألة دعــوة الى الحيــاة ضد الموت انما هو مجرد وصف لواقع وجودنا : اننــا نريد أن نحيــا ونقاوم الموت وبارادتنا للحياة فنحن نثور ونتمرد ونتطور لا محــالة أو ليست حكمة الله أنه فضـــل الانسان الذى يعصيه ويطيعه على الســواء على الملاك الذى يطيعه فقط ؟ اذا فهى صفة التمرد والثــورة وهى العصيان من أرضية الطاعة التى جعلت الانســان مفضلا عند الله وهى أيضا صفة اليسارية · أفلا نستطيع القول أن الله يفضل فى الانســان قدرته على المخالفة بقــدر ما يطالبه بالطاعة ، وهى ليست المخالفة القهرية (اليسار الطفولى) ولا هى الطاعة الآلية (اليمين المتحجر) ؟

كلنـا جمال .. بذمة أو بدونها

في العلاقة بين أى نقيضين نتصور أن هناك قيمة لطرف تميزه على نقيضه وتجعله أفضل كما لو كان هذا التقسيم باســتخدامات اللغــة فاذا اخترنا كلمة ظالم أو ســارق ارتبط ذلك في أذهاننا بقيمة هابطة أو سلبية بينما اذا استخدمنا كلمــة حاكم أو خادم مثلا فربما تكون ايجابية أو سلبية حسب الموقف بينما اذا اخترنا كلمة عادل أو أمين ارتبط ذلك بالقيمة الايجابية . ويتوقف الحكم على وجود من يقوم على طرف من اطراف النقيضين وهــو عادة الطرف الذى يفضله فموقفه اذن أن « أنا » موجب أى خير أو صاعد أو ايجابى والآخر سالب أى سىء أو هابط . بل انه فى حالات المازوخية ـ يستمتع المرء بالعقاب فانه فى النهاية يفضل العذاب ويختاره ويضفى قيمة ايجابية لعذابه ولكونه سالبا أو سيئا .

البعد الثانى للتقويم هو صفة الموضوعية التى نسعى دائما الى اضفائهــا على قيمنا فلو أننى أفضــل شيئا على آخــر ويتحول الحوار بيننا الى معركة فأنا أدافع عما أفضل وهو يدافع عما يفضــل والحكم بيننا هو قدرة أحدنا على فرض وجــوده على الآخــر أى الحكم بيننا هو القــوة . لكن خطورة القــوة هى أنه بقدر ما يكون فى استخدامها محوٌ للآخــر فانها تحــوى مجازفة أن تنقلب على صاحبها حين يأتى دوره فى معركة تاليــة يكون هو الطرف الاضعف فيها ومن هنا نشــأت لدى الطرفين ـ القــوى والضعيف ـ ضرورة أن يكون هناك حكم ثالث بينهمــا

وهو الحق أو الموضوع أو ما شـابه ذلك · وهذه الصفات هى التى تضفى على القـوة درجة من الاستمرارية والدوام فبواسـطة اقتناعى أن رغبتى تمثل الحق أو الموضوعية فان ذلك يجعلنى أثابر فى التعارك حتى النصر لقضيتى الذى هو نصرا لى حتى بعد زوال ذاتى · فالحق هنا أصبح قوة مؤجلة بعد ما كانت القوة حقـا قصير الامد · والموضـوعية هـ ىالتى توسع قوتى وذاتى لتشمل أكثر من ذاتى المحدودة الفردية فهناك آخرون يريدون ما أريد الامر الذى يزيد فى قوة من خلال الآخرين ·

فهناك أمران متصلان يجب أن نأخذهما فى الاعتبار ، الاول النسبية فى القيم ، فما هو خير أو شر أو صواب أو خطأ يتغير حسب موقعنا من القضية ، والثانى هو ذاتية القيم من حيث ما أفضله يرجع فى النهاية الى ذاتى ورغباتى ·

من هذا المنطلق نستطيع ان نعالج احدى القضايا المطروحة حاليا وهى ذمة عبد الناصر : فهناك اتجاه يسعى الى القاء الشكوك حول هذه الذمة واتجاه مضاد يسعى الى تفنيد مثل هذا الادعاء ·

ولنبدأ بمنطلق النسبية فى القيم ونتساءل فى البداية ما هى السرقة قبل ان نتساءل عما اذا كان عبد الناصر سارقا من عدمه فاذا أخذنا بالمفهوم الشائع للسرقة فسوف نجده يشمل هؤلاء الذين يأخذون ملكية غيرهم وبالدخول فى التفاصيل والامثلة فهنـاك النشال الذى يأخذ ما فى جيوب الناس برهاء وبالحد الادنى من الاغتصاب ، وهناك الذى يسرق بالاكراه فيعتدى على الافراد أو يهددهم بالاعتداء ويدخل المنازل ويسرقها فى غياب اصحابها ، وهؤلاء يسهل ضبطهم واتهامهم وعقابهم ويسـهل تعريفهم بأنهم

لصوص • وهؤلاء يستخدمهم المجتمع كأكباش فداء للاسقاط حيث يمكن دمغهم بأنهم هم اللصوص ولسنا نحن وأن أى سلوك مشابه نمارسه ليس سرقة وانما الذين يمارسونه هؤلاء بهذه الصـــورة الملموسة الواضحة ، هى السرقة •

ولكن ما هذا السلوك المشابه الذى تمارسه ولا يعرف بأنه سرقة ؟ فلنتدرج قليلا فى سلم السرقة ونرى حلقات الاتصال ونبدأ باللص الذى يمارس جريمته دون أن يضبط ، فهذا قد نعرفه بانه لص ولكننا لا نستطيع ان ندمغه رسميا باللصوصية والا نلنا نحن تهمة القذف • ثم هناك اللص الذى يبدو شيرفا فيما يعتص بالقروش ولكنه يحتفظ بمواهبه للسرقات الكبيرة وبطريقة محكمة ، مثله مثل المرتشى الذى يعتبر انه قد أمين اذا عرض عليه نقد محدود ولـكنه لايضيره ان يقبل الصفقات الكبرى سرا ، أو قد يأخذ بدلا منها خدمات عينية تساوى اضعافها • ثم هناك اللص الذى يسرق عمل الآخر فهو لا يتقاضى أجرا نظير جهد يؤديه بمثابرة مثل العامل أو الفلاح ، ولكنه يتكسب من الصفقات والعمولات أو اللعب بالاسعار • وقـد يقال ان هذا عمل ولكنه فى جوهره ليس الا ذكاء ودهاء وانتهاز فرص ، واختلافها عن السرقة المكشوفة انها تمارس فى ظل القانون ولا يمكن ضبطها أو دمغها بالسرقة • مثل هذا اللص يريد المزيد ، ويريد ان يصبح شيخا للصوص ويسعى للتحكم فيهم والسيطرة عليهم مقابل احتفاظهم بأنصبتهم ، ولكن فى ظل هـــذا القانون (قانون الغاب الذى يحكم علاقات اللصـــوص) يأكل اللص الكبير اللص الصغير وهو يفعل ذلك بذكاء ليتجنب الضبط فهو يتجنب السرقة المكشوفة والعنف المباشر ومع ازدياد دهائه يمارس سرقته باسم

القانون ، وتحكمه فى الاسعار والانتاج يجعله يقضى على منافسيه
يحولهم الى اجراء عنده بدلا من أنداد لـه ، فاذا ما زاد دهاؤه
اكثر فانه يعرض تنازله عن ملكية الاشـياء مقابل الاحتفاظ بحق
التحكم فيها أى يتنازل عن المال من أجل السلطة • فيحتكم للشعب
وباسمه لينتزع ملكيتها من أصحابها مستخدما سلاحا من أسلحة
الشعب فى السيطرة على مقدراته وهو التأميم بعد أن يفرغه من
مضمونة فهو يضع هذه الملكيات باسم الشعب فى مقابل بقائه على
قمة هرمها ودون أن يتعرض للخسارة أو المجازفة التى تصاحب
عملية الملكية رغم تحكمه فيها كأدوات للانتاج ، فاذا خسرت حمل
الخسارة للشعب بصفته المالك ، أما اذا كسبت فانه يستخدم
الفائض لتوسيع سلطانه دون ان يضيف بالضرورة الى نصيبه •
ولكن الفرد لايضمن بقائه فى هذه القصة الا اذا كان عضوا فى
مجموعة تتفق فيما بينها ضمنيا وبروح رياضية ان من يخســر
فيهم المناصب لاينزل بالضرورة الى الحضيض • ولكن مع احتدام
الصراع على السلطة يزداد الخوف من فقدانها وتزداد شراسة التمسك
بها • ولكى يحصل الفرد على السلطة فانه قد يتنازل عن الملكية ،
وكلما خاف الفرد من فقدان السلطة كلما تمسك بالملكية كمصدر
امانه البديل للسلطة ، فيتقدم فى القمة الى من يتنازلون عن الملكية
فى سبيل السلطة ويتأخر من يتنازلون عن السلطة فى مقابل الملكية •
فاذا ما انتصر اصحاب السلطة فانهم يزدادون تمسكا بها فيلجؤن
الى درجات متزايدة من البطش لمنع المنافسين • ولكن البطش يزيد
التمرد ويتجمع المتمردون حتى تأتى لحظة ضعف السلطة فينقضون
عليها ويجندون وراءهم من حرموا من نصيب الاسد أو من الملكية
بصفة عامة تحت شعار التحـرر والقضـاء على التحـكم المطلق

ويوزعون الملكية التى كان يتحكم فيها فيمـــا بينهم وبدلا من تركه فردا واحدا يتحكم فى كل شىء فانهم يوزعون الســلطة أو الملـكية أو كليهما بينهم ، وكل خــلافهم مع غريمهم الذى اعتبروه شـــيخ المنصر هو أنهم لا يريد أن يستأثر أحد بنصيب الاسد ولكن يجب تقسيمه بين عدة أسود صغار · ومع ارتفاع شعار الحرية يلجئون مرة أخرى الى الشعب الذى يراوده الظلم ، أحيانا قد يحصـل هو ايضا على شىء من حقه فيؤيدهم حتى يتم القضاء على الاسد الكبير وبعد ان تستقر الامور يعود الشعب الى تكناته ويتقاسم الاســود الصغار التركة · فاذا ما اتهموا بالسرقة أو خـــداع الشعب أو استغلاله قالوا اننا لسنا نحن فقط اللصوص انما شيخنا هو ايضا اللص فيبحثون عن تهم بالسرقة يلصقونها به يجدون فيها مبررا لمـا يفعلونه وخاصة اذا لم يعد الامر سرا والاضواء تتجه نحوهم فهم بسذاجة مفاهيمهم عن السرقة يبحثون عن التعريف السائد للسرقة التى يمارسونها فى الخفاء وصارت مكشوفة حتى اذا سألهم سائل قالوا · مع الشاعر العربى :

ياايها الســـائل عن ديننـــا
نحن على دين أبى شـــاكر
نشـــربها صـــرفا وممزوجة
بالسخن أحيـــانا وبالفـــاتر

أو قالوا :

« اذا كان رب البيت بالدف ضاربا ، فشيمة أهل البيت كلهم الرقص » وسذاجتهم انهم لم يجدوا غير التعريف السائد للسرقة ولم يفطنوا الى أن الملكية ما هى الا وسيلة وخطوة نحو توسيع دائرة

السلطة وان الذى يملك السلطة لهو غنى عن الملكية فلا حاجة به الى أن يسرق بطريقتهم فهو بواسطة تحكمه المطلق فى وســـائل الانتاج فانه يعتبر المالك الكبير لكل الملكيات وهو يسيطر على كيفية توزيع هذه الملكيات على اتباعه كيفما يشاء ، فكيف يطمع من يملك التحكم فى كل الملكيات وهو يسيطر على كيفية توزيع هذه الملكيات على اتباعه كيفما يشاء ، يأخذ ممن يشاء ليعطى لمن يشاء ـ كيف يطمع هذا فى اقتناء مجرد جزء صغير من الكل ؟

وبهذا المفهوم وبغض النظر عن ثبات التهمة فى حق الزعيم من عدمه فان موضوع التهمة فى حد ذاته غير ذى وزن ولا أهمية . ولعل أول من وقع فى هــذا الخطـأ هم الاميريكيون حينما حاولوا رشوة جمال عبد الناصـــــر بثلاثة ملايين دولار كعمولة فاجابهم بالاشارة الرمزية بان أبرز لهم برجا منتصـــبا الى أعلى (برج القاهرة بأرض الجزيرة) ، وخطئهم مصدره انهم نسوا انهم يتعاملون مع المالك الاكبر والوحيد للبلد كلها فكيف يقبل عمولة أو نسبة على صلب المبلغ الذى يعتبره ملكه فى المقام الاول فالبلد كلها ملكه يوزع منها ما يشاء من خلال القانون (علاوة على رصيده من الشعبية) وأى من المؤسسات أو الهيئات التى بواسطتها يحكم الدولة .

فاذا نجح الامل الساذج لمن يوجهون هذه التهمة فى ان تثبت عليه فان كل ما سيحدث ان الضوء سيتحول من عليهم وستخف حدة وقع سرقاتهم فهذا حال الدنيا وكلها لصوص .. واذا كان « جمال » بدون ذمة فكلنا بدون ذمة ، فكلنا جمال . وتنتقل العدوى من أعلى قمة الهرم الى أسفله فيجد الكل المبرر لممارسة السرقة كل بطريقته

الخاصة . واذا كان لابد أن نرى انفسنا شرفاء فلنتهم أحدا آخر بالسرقة حتى نبدو شرفاء بالمقارنة الى صغار اللصـــوص الذين يسهل ضبطهم ونضعهم فى السجون وننام مسترحين كأننا كافحنا السرقة . هؤلاء اللصوص كبش الفداء الذى نذبحه بدلا من ذبح ابناءنا وتخفف بواسطة عقابهم وخز ضمائرهم فهم لا يملكون وسائل الدفاع التى تحميهم والسجن الصغير بالنسبة لهم ليس أسوأ حالا بكثير من السجن الكبير الذى يعيشون فيه وحتى فى حالة اعترافهم بجريمتهم واقتناعهم الظاهرى بان السجن اصلاح وتهذيب فانهـــم بأفعـالهم وتكرار جريمتهم انما يؤكدون حقيقـــة عقيدتهم وهى أنهم ليسوا أسوأ من غيرهم وانهم يسرقون ممن يسرقون مثلما يسرقون وهم يسيرون بطريقتهم الساذجة فى شيمة الرقص على طريق رب البيت ضارب الدف .

أى اننا حينما نحاول التشـــكيك فى ذمة عبد الناصر لابد ان نأخذ فى الاعتبار الجانب الذاتى لمثل هذه النظرة أى ما هى وظيفة الاعتقاد بأن عبد الناصر مشكوك فى ذمته بغض النظر عن الحقيقة « الموضوعية » التى نستطيع أن نرى طبيعتها النسبية والذاتية ؟ واذا ما نجحنا فى الاعتراف بالاسس الذاتية والنســـبية فان ذلك يعطنا القدرة على الاقتراب من الموضوعية أو بالاصح الى درجة من التعايش بين الذاتيات المختلفة ، فنحد من تعصـــبنا وبالتالى من شدة الصراع مع من يخالفنا .

فنستطيع ان نستمر فى التساؤل عن وظيفة التشكيك فى ذمة عبد الناصر وقد رأينا كيف أن هذا الشك قد يخدم الذين يبحثون عن مبرر لاستمرارهم فى سرقاتهم وتحت دعوى أن رب البيت هكذا .

ونستطيع ان نجد مستويات أخـــرى للاستفادة بمثل هـذه النظرة ، فهناك من يريدون اخماد الثورات فيحاولون اثبات ان الثورة ما هى الا استبدال وجوه بأخرى وان الذى يدعـــو الى ثورة أو اشتراكية ليس الا طامعا فى نصيب أسدى ولا داعيـــا لعـدالة أو مساواة ، فهذا زعيم أرتبط اسمه بالاشتراكية فاذا اثبتنا انه ليس الا طامعا آخــــــر فى الاستحواذ والتملك فان كل داع الى ثورة أو اشتراكية لن يفعل أفضل منه · فاذا كانت الدنيا سرقة وأولى الأمر لصوصا فلا داعى للثورة عليهم أو تغييرهم لاننا لن نفعـل الا استبدال لص بلص · واذا كان الحاضر سيئا فلنتحمله لان الماضى ليس أفضل منه بكثير · وقد نجدد دافعا ثانيا أكثر ذكاء مثل هذا التشكيك : فهناك من يريدون الصاق هذه التهمة بأعوان عبد الناصر وزملائه بدلا منه نظرا لما يلمسونه فى جماهير الشعب من أنه مازال يسرق ويستغل رغم كل العدالة والحرية والاشتراكية التى تلقاها فهناك احساس مبهم لدى الجموع ان هناك سرقة ولابد من البحث عن سارق نتهمه لكى نسكتهم والا ثاروا علينا فيلكن المتهم شخصا بعينه (فلان أو علان ممن كانوا قريبين من قمة السلطة) نضحى به من أجل ابقاء النظام وتحول اليه الانظار والنقد بدلا من ان نتلقاه نحن المستفيدين من النظام · وهكذا نكون قد قدمنا كبش الفداء ، وما أننا قد عرفنا السرقة بمفهومها الضيق ، مع علمنا مسبقا أن عبد الناصر لم يكن فى حاجة الى مثل هذه الممارسة الصغيرة للسرقة، وأثرنا الزوبعة مع علمنا مسبقا باننا سوف نخمدها فاننا بهذا قد برأنا عبد الناصر من تهمة السرقة واكتفينا بالصاقها بمن حوله واثبتنا أن العيب ليس أبدا فى الحاكم وانما هـــو ودائما فى الطغمة الفاسدة التى تحيط به ، وبهذ نبقى على الصـــورة الابوية النظيفة

للحاكم ونسقط مساويؤه على الآخرين من حوله · ونعفى أنفسنا بهذا من أى نقد للحاكم فى أى وقت · واذا كان لدينا ما نشكو منه فى الاوضاع الحالية فالاغلب ان الحاكم لا ذنب له فيها ولكن المسئولين هم الطغمة التى تلتف حوله - وبهذا يتم التشتيت للتتهمة وتحويلها من شخص محدد الى مجموعة مبهمة يصعب ضبطها وخاصة ان المطالبين بالقيام بعملية الضبط ليسوا الا أعضاء فى هذه المجموعة أو أعوانا لها · فهذه المجموعة تشمل كل من استفادوا بوجود الزعيم ، وفى التحليل النهائى لا يختلفون عن المستفيدين الحاليين الا فى بعض التفاصيل · وبهذه الطريقة أى بتشتيت التهمة من الزعيم الى المجموع فاننا نكون قد حمينا الوضع القائم بأن قيدت السرقة ضد مجهول ثم تركناها تستمر كما كانت أو تزيد ·

وهكذا نستطيع ان نجد المزيد من الدوافع وراء الرغبة فى اتخاذ مثل هذا الاعتقاد تختلف حسب كل فرد أو فئة من الناس والواقع الذى يحياه · ولكن لننظر الى الجانب الآخر وهو وظيفة الرغبة فى تنفيذ هذه النظرية : فاذا استطعنا اثبات براءة ذمة عبد الناصر فلعل ذلك يخدم رغبتنا فى اعفاءه من تهمة السرقة على مستوى آخر وأكبر اذ انه بدلا من سرقة الاشياء بامتلاكها تكون سرقتها بواسطة التحكم فيها وتوزيعها كيفما شاء · فالمجموع تشعر بحدسها أنها مسروقة مستغلة رغم أن عبد الناصر قد وعدهم باعادة حقوقهم لكنهم مازالوا يعانون من نفس الاحساس ويجدون ان عملية السرقة والاستغلال لم تنته انما الذى تغير فقط هو وجوه اللصوص وعددهم ، وان كان نابهم من بعض الفتات ، فهناك احتمال هنا ان

يفطن الى أن عملية السرقة ليست مجرد اقتناء وتملك فى حد ذاته ولكنها تشمل ايضا الاستيلاء على السلطة (أى سرقتها) وبواسطة ذلك التحكم فى الملكيات ، أى بواسطة سرقة السلطة تصبح البلد كلها ملكية لصاحب السلطة وهو يوزع النصاب على معاونيه كل حسب دوره ٠ وكلما استقر شخص فى السلطة كلما قلت حاجته الى الملكية ، فهو بواسطة السلطة والتحكم فى أدوات الانتـــاج يستطيع التغاضى عن الملكية الشكلية ، وبما ان عبد الناصـــر (والبعض القليل من معاونيه) كان الوحيد المستقر فى السلطة فان ذلك كان يعنى ان يحصل بقية الاعـــوان على نصيبهم فى الملـكية كتعويض عن الحرمان من السلطة المستقرة أو كتأمين فى مواجهة احتمال فقدانها ٠ ومع اهتزاز وضع الســـلطة تزداد الرغبة فى الاقتناء السريع أى السرقة الصريحة وكلما كان النظام قصير المدى كلما سادت فلسفة « التهليب والهبش النتش » اذن فاعفاء عبد الناصر من تهمة السرقة بغرض لصقها بباقى معاونيه يخدم الرغبة التى لدى البعض الآخر من معاونيه الذين حرموا من السلطة فى اخراج معاونيه الذين مازالوا فى السلطة فيتهمون هؤلاء بالسرقة لان شكل تملكهم لمصادر الكسب (العمولات وما شابه) يختلف عن شكل تملكهم هم (السيطرة بدون ملكية) ولما كانوا قد حرموا من السلطة ٠ فانهم يريدون استعـــادتها وخلع هؤلاء بغرض السرقة بطريقتهم (باسم الشعب والاشتراكية) أى انهم اذا نفوا التهمة عن عبد الناصر فقد نفوا التهمة عن انفسهم بصفتهم انصار عبد الناصر ومن ثم فمن حقهم ان يطالبوا بمراكزهم فى القمة مرة أخرى ٠

أين الحقيقة اذن ما دامت كل وجهة نظـــر تعبر عن دوافع

صاحبها ؟ هل هناك حقيقة من أصله ؟ فاذا كانت هناك حقيقة اليست في حاجة الى معبر عنها الأمر الذى يجعلها فى النهاية تعبر عن دوافع قائلها • أو ليس للكاتب والمفكر مواقف ومصالح يعبر عنها مما يجعل فكره الذى ليس مجرد نتائج صدفه أو رياضه عقلية معبرا عن ذاتيته ؟

لنعد الى حاضرنا بصفة عامة ونفهم ذواتنا المحدودة بقدر كيف يخدم دفاعنا عن الماضى أو هجومنا عليه حاضرنا ؟ ان واقعنا الحاضر متغير بطبيعته اذ طالما هناك حياه وانسان فهناك تطور وتغيير ، وهذا التطور يأخذ صورة الرفض العنيد للواقع فمهما كان واقعنا جميلا وهادئا فما دام حيا فانه لابد أن يتغير وما دام يتغير فلا بد من درجة من الرفض والرغبة فى التغيير وعادة نشير الى هذه الرغبة فى تغيير الواقع وهذا الرفض له باليمين اذا كان يرفض الواقع لتمسكه بالماضى وباليسار اذا كان رفضه مبنيا على الأمل فى المستقبل •

واذا نظرنا الى محاسبة عبد الناصر من هذا المنظور فسنجد ان لدينا يمينا يرفض واقعه الحالى الذى يعتبره امتدادا لعبد الناصر متمسكا بماضى ما قبل ١٩٥٢ • أما يسارنا » فان رفضه لواقعنا يستند الى التمسك بماضى ما قبل ثورة التصحيح ، فهو يرفض الازدهار الرأسمالى الحالى ويطالب بالعودة الى « اشتراكية » ما قبل ١٩٧١ مضفيا على نفسه صفة التقدمية لانه يدعو الى الاشتراكية • وهو يطالب بالعودة الى ايام عبد الناصر ويدافع باستماتته عنه ازاء أى محاولة لتشويه صورته • ولكن اذا كانت هذه الاشتراكية حقيقة ومعبرة عن رغبة الجماهير فلماذا انتكست (على اعتبار أن الوضع

الحالى نكسة) ؟ واذا لم يكن نكسة وافتراضنا أن التاريخ يســير الى الامام فهل هذه الرغبة فى العودة الى الخلف يمينية فى جوهرها ويسارية فى ألفاظها ؟ واذا كان هذا « اليسار » فى جوهره يمينـا فاين اليسار الحقيقى أى الذى يرفض الواقع أملا فى المستقبل ؟ اذ ان هذا اليسار موجود بغض النظر عن وجود شكل له فالرفض العنيد للواقع بحثا عن أمل فى المستقبل هو خاصية من خصائص الحياة لاغنى عنها ولا تطور بدونها ٠

لعلنا نجد بعضه فى ضوء الافتقار الى القيادات ينضوى تحت لواء القيادات القديمة أملا فى أن يكون قولها ولفظها مثل جوهرها ولكن هذه القيادات القديمة فقدت بريقها وأصبح اليسار الحديث مشتتا بدون قيادة أو تنظيم ، أى بدون فاعلية ٠

وهذه المحاولات المستمرة للتقليل من وزن عبد الناصر لهى احدى العوامل التى سوف تضطر هذا اليســار الى البحث عن قيادات جديدة من قواعده ٠ فعبد النـاصر لم يعد يصلـح رمزا للقيادة وهذا اليسار بحـكم التعـريف يرفض الواقع ويسعى الى ما هو أفضـل ، والماضى الذى يمثله عبد الناصر لم يعد أفضـل وهناك ضرورة لنظرة مستقبلية ٠ ولكن المســتقبل بدون تحـديد أو شكل أو قيادة يضع على هذا اليسار مسئولية قيادة نفســه ، وهى مسئولية لم يتعودها فان هذا اليسار الذى يتكون من الشباب الذين ترعرعوا فى عهد عبد الناصر نشأ منذ طفولته يمجد البطولة والقيادة ويكاد يؤلهها ، ورغم صدمة ١٩٦٧ وما ترتب عليها من اعدة تقييم النفس فان الشوق الى زعيم يقوم بكل المسئوليات وحده ما زال موجودا ، ومن ثم هذا التعاطف مع اليسار القديم فى المحافظة على صورة عبد الناصر ٠

ولاننا نتمسك على هذا التمجيد والتأليه للقيادة فاننا نساهم فى بقاء الشكل الهرمى للسلطة الذى يعطى حق التحكم فى الملكية أو حق الملكية نفسها لقلة فى قمة الهرم أى أننا نشارك فى بقاء السرقة سواء فى صورة مجموعة الملكيات الصغيرة أو صورة الملكية الكبيرة التى يسيطر عليها فرد أو قلة ٠

واننا اذ نساهم فى هذا الاستئثار لقلة على السلطة والملكية بخضوعنا فاننا أيضا مسئولون عما يؤدى اليه هذا الاستئثار من الاشكال المختلفة للسرقة ٠ والقضية ليست هل سرق فلان أو فلان بقدر ما هى أن الشكل الهرمى الحالى للمجتمع والذى نساهم نحن فى بنائه لا يمكن الا أن يكون هو كله عبارة عن سرقة كبيرة ومقننة تمارسها قلة من أفراد المجتمع ضد من دونها فى الهرم الاجتماعى ، وأغلب الخلاف هو حول من الذى سوف يجلس فى القمة ويأخذ نصيب الاسد (أو الاسود) وليس على مبدأ وجود قمة وقاعدة من أصله ٠ فلو وضعنا ملاكا على رأس هذه القمة فليس أمامه الا أن يكون خاضعا لقوانينها والا لفظته كما لفظ الامريكيون أخوان كنيدى واحدا تلو الآخر ، وكما تحارب المجتمعات كل وجه شريف يجد ظهوره ، فما من نبى ظهر الا وقالوا عنه أنه ساحر ٠ أو فاقد للصواب والرشد ٠

فاذا اتهمنا قادتنا بالسرقة فلنتذكر أننا نخضع لهم لقوانين الجماعة التى نكونها ، واننا أيضا مشتركون بشكل ما ومسئولون عما آل اليه حالنا ، فاذا كان جمال بذمة فنحن أيضا بذمة واذا كان بدون ذمة فنحن أيضا بدون ذمة وبهذا المعنى فكلنا فعلا جمال وكلنا مشتركون ومسئولون عما نحن فيه ٠ وان المتهم والتهم المضادة

ما هى الا وسـيلتنا الدفاعية لتجنب عبء المسـئولية والقائه على الآخرين والصورة المعكوسة لهذه العملية هى التى تأخذ المبالغة فى التمجيد والاعتماد على القائد لكى ينتشلنا مما نحن فيه . أى أن موقف اللـوم أو المـدح ليس الا تعبيرا عن تمســكنا بموقف اللامسئولية أكثر منه وتعبيرا عن صفات سيئة أو حسنة فى الذى نوجه اليه اللوم أو المديح .

هل يعنى هذا انه ليس هناك مكان للوم أو الثناء ؟ فاذا أخطأ فرد الا يجب أن نوجه اليه اللوم والحســاب والعقاب واذا فعل فعلا طيبا الا يجب أن نعطيه الثناء والجزاء والمديح الذى يستحقه؟ نعم ، ولكن هناك فرقا بين اللوم أو الثناء من أجل التفريغ العاطفى أو تجنب المسئولية وبين اللوم والثناء الذى يهدف الى الاستجابة لموقف والتكيف مع واقع أما بقبـوله او محـاولة تغييره . فاذا ما افرغنا الشـحنة الانفعالية بتبادل التهم واللوم والدفاع فلا بد أن يتبع ذلك مرحلة من التقييم الهادى الذى يحول اللوم الى نقد بناء والمديح الى حوافز .

فاذا فرغنا من هـذه المرحلة من اللوم والدفاع عن ماضـينا الغريب أمكننا الانتقال الى محاولة هادئة لتقييم وضعنا فى ضوء الماضى والمســتقبل ومعرفة اتجاه التطور ثم اختيار الموقف الذى يعبر عن مصالحنا .

فحاضرنا أى واقعنا ليس أبدع ما يمكن أن يكون . ولا هو أسوأ مما كان . وهو لم يأت صدفة انما هو ناتج طبيعى وامتداد لماضـينا وخطوة نحو مسـتقبلنا وحتى مع افتراض انه من الممكن لخطوة أن تكون نكسة فان النكسة أحيانا تكون ضرورية فى الاتجاه العام للمستقبل والتقدم .

فالخطوة التكتيكية الى الخلف قد تكون جزء من طريق طويل الى الامام · قد يكون أنه ليس فى الامكان أبعـد مما كان ، ولكن بما أننا نكون فى حالة صيرورة فاننا لا يمكن الا أن نعى أن هناك فى الامكان أبدع مما هو كائن ·

الخروج من الجاذبية الارضية ٠٠ والعودة

ثالوث الشباب هو الكورة والحب والتلفزيون وهى من مظاهر الحياة الحسية والمادية ولا تعدو أن تكون بديلا « للفاليرم » كوسيلة للغيبوبة ونسـيان ما يقتضيه العقل من العقلاء ٠ ولا يتميز عنها الانتماء السياسى لليمين أو اليسار كمظهر للرغبة الحسية المادية فى الحـكم والتسـلط والحقد ٠ وهم خوارج لا ينتمون للدين الذى يمثل فى جوهره التحرر الحقيقى من هذه الشهوات الحسـية والخروج بالتالى من الجاذبية الارضية ٠ والدين ليس الا صراط واحد بلا يمين أو يسار * ٠

الحلقة الوحيدة والاساسية الناقصة فى هذا التحليل هو أنه هناك افتراض ضمنى أن هؤلاء الشباب هم المدمنين لشهوات الدنيا وينضـم اليهم الشـيوعيين والجماعات الدينية المتطـرفة وكأن من ليسوا من هذه الفئات هم أصحاب الصراط المسـتقيم ٠ فالهروب بالرفض الذى يمارسه الرافض وكذلك الذى يسعى للغياب بوعيه هو ما يميز هؤلاء الشباب والمتطرفين ٠ فالذى يسعى الى اشباع شهوة محروم منها يعتبر من هذا المفهوم مدمنا مع الافتراض الضمنى أن الذى يشبع فعلا هذه الشهوات ذاتها (وبالتالى لا يسعى اليها) ليس مدمنا ٠ فالذى يشبع شـهواته الحسـية والمادية بامتلاك المال والبنون ليس مدمنا لانه لا يشـتهى المال والبنون ٠ فكيف يشـتهى المرء شيئا يقتنيه ؟ وان الشهوة بحكم التعرف هى الرغبة المفرطة

---

* عن مقال الدكتور مصطفى محمود « الخروج من الجاذبية الارضية » مجلة صباح الخير يوليو ١٩٧٨ ٠

فى شيىء خارج التناول وعلى هذا الاســـاس فان هذا التفسـير لا يدين من يملكون المال والبنون أى من ليســوا شــبابا أو يمينا أو يســارا ٠

ولكننا لو طبقنا نفس المنطق على الجميع بلا استثناء فسوف نجد أن من يملكون المال والبنون ليسوا بالضرورة متحررين تماما من شهواتهم فيها ولكنهم فقط أقدر على اخفائها طالما ملكيتهم لها لا تهدد ، وشــهواتهم تظهر حينما تهدد ملكيتهم لها فيكشــفون عن أنيابهم ويظهر تشبثهم القهرى بتلك المتع الحسية ٠ وهم يهددون فى ملكيتهم لها حينما يرفضهم أحد بأن يرفض اســتحواذهم وحدهم على تلك الممتلكات ٠

الشباب الذى يرفضهم بانغماسة فى شهوات الكورة والحب والتلفزيون انما يهددهم بأن يتحول الى عضــو غير منتج فى آله انتاجهم الكبيرة مثله مثل مدمن العقاقير فهو فى غيبوبة عن انتمائه المسئول للمجتمع وعدم انتمائه يجعله عضوا غير منتج وبالتالى مدمر لهذا المجتمع ٠ الا أن مثل هذا الرفض هو أرحم على أية حال من وجهة نظرهم من الرفض المنظم والنظر فى صورة أيديولوجيات وكوادر ســياسية تمتلك القــدرة الفعــالة على تهديد الاوضــاع التى جعلتمن يملك يملك ومن لا يملك يريد أنيملك ويحقد وبالتالى علىمن يملك ، والاضراب المقنع فى صورة المقاومة السلبية التى تتمثل فى الانهماك فى اللذات الحسية الدنيا على أية حال أقل خطورة لهذه الاوضاع من الاضراب المعلن والمنظم ، فهذا الاخير يملك القــدرة على قيادة الرافضين السلبيين ليحدثوا التغيير فى الواقع ولذلك فالواقع يرفضــهم لان الواقع بدوره فى تأكيــده لوجــوده يرفض

رفضهم له ويجد من يعبر عنه مدافعا عن وجوده بأن يرفض الرافضين للواقع فيدينهم ويضعهم وحدهم فى سلة الخارجين على الصراط بحجة أن الصراط واحد ·

فاذا كان هذا صحيح فاننا أيضا بنفس المنطق نستطيع أن نفترض أن الذى يرفض الرفض فهو رافض أيضا ، وبالتالى فهو يعطى الحق ضمنيا للطرف الآخر أن يرفضه هو الآخر · وعلى هذا الاساس فان الواقع الذى يرفض من يرفض لهو مرفوض هو الآخر على الاقل من جانب الرافضين له · وكيف لا يكون ذلك ؟ أفليس دوام الحال من المحال ؟ أو ليس الواقع ذاته ذاته بحكم الواقع متغير ومتطور ؟ فمرور الزمن فى حد ذاته يضفى بعض التغيير على ما هو موجود · والواقع فى صيرورة دائمة وليس لوجوده ثبات وما الثبات الا لله وحده ، فهو الدائم الاوحد · والصراط الواحد اذا ليس حكر لاحد فى الدنيا فأكثرنا يسعى اليه ولكن القليل منا من يقترب منه أو يصل اليه · ومن يرفضون هذا الواقع هم المعبرين عن هذه الحقيقة وهى حقيقة أن الواقع متغير · وهى حقيقة الله بقدر ما يكون وجوده تعالى هو الوجود الدائم وما عداه فهو زائل ومتغير · ومن هذا المنطلق فان الرفض للرافضين ما هو فى حد ذاته الا رفض للحقيقة فاذا قبلنا ارادة الله حقا ان جعل الواقع زائل متغير فان زواله يحقق من خلال رفض الرافضين له · ولذلك فان رفض الرافضين هو رفض لارادته ·

ومع هذا فان ذلك لا يعنى أن يستسلم الواقع للرافضين له فالاستسلام أيضا مظهر من مظاهر الرفض لهذه الارادة وهى ارادة أن يكون الواقع موجود · فلكى يوجد الواقع لابد أن يرفض رفضه فى دفاعه عن وجوده ·

الحلقة المفقودة تأتى حينما يرفض الواقع مبدأ رفض غيره له ويسعى لالغائه انه بذلك يرفض أن يرى أن هناك ضرورة لوجود رفض له بل أن هذا ضرورى له كواقع متغير متطور فاذا ما واجه هذه الحقيقة اسـتطاع أن يحول طاقته من رفض الرفض له الى تأكيد لوجوده بما فى ذلك وجوده كواقع متغير فسـعى على هذا الاساس الى تغيير ذاته وهو الامر الممكن بل والواقع أيضا وذلك بدلا من السعى الى تغيير رؤية الرافضين له وهو الامر المستحيل وبهذا فسوف يتمكن من تغيير ذاته بذاته بدلا من الانتظار حتى يغيره الرافضـون له ·

وهنا لابد لنا من محـاولة فهـم ظواهر الرفض بأشـكالها المختلفة بدلا من الغائها والقائها فى سـلة الخروج على الصراط ولعل فى رفضهم ما يستحق التغيير وما دام الرفض بالهروب الى شـهوات الحس بصـورها المختلفة مرفوض فلعل هناك اطار آخر للرفض يمكن أن يقبل ·

بقيت مخاطرة واحدة وهى أنه اذا أصـبح الرفض مقبول من قبل المرفوض فانه يفقد خاصيته كرفض ويتحـول الى مظهـر من مظاهر الواقع وأصبح فى حاجة الى من يرفضه ·

والسؤال الآن هو هل يعنى ذلك أن السلام الاجتماعى مستحيل وأن الصراع حتمى ؟ فاذا كان بالايجاب فان ذلك سوف يعنى أن حالة الصراع بحكم طبيعتها تسعى الى الوصول الى حالة استقرار فكر طرف من موقع تصارعه يريد أن يسـتقر فى وضـع المنتصـر (والا لما كان هناك صراع) أى أن حالة الصراع تهدف الى تحقيق السلام · واذا كانت الاجابة بالنفى أى أن السلام الاجتماعى ممكن

فيعنى ذلك أن هناك صراع فعلا ومبدأ السلام يسعى لاحلال محله
• اى أنه اذا كان السلام الاجتماعى مستحيل فذلك يعنى أنه موجود
كمطلب واذا كان ممكن فان هذا يعنى أنه غير موجود كواقع •

فبالمفهوم المطلق لا نستطيع أن نؤكد هذا الجانب أو ذاك •
الا أننا بالمفهوم النسبى فى اطار وجودنا فى نقطة ما فى بعدى
الزمان والمكان نستطيع أن نتخذ موقفا نحدد به هويتنا • فهل نحن
ننتمى الى الطرف الذى يريد أن يبقى حاله على ما هو عليه
ويتمسك بما يملك ويرفض من يرفضه ويطالبه بالسلام الاجتماعى
بمعنى أن يكف عن رفضه له ؟ فاننا فى هذه الحالة أصبحنا ضمنا
فى حالة صراع مع من يرفضنا أم هل نحن ننتمى الى ذلك الطرف
الذى يرفض واقعه ويريد أن يغيره فيكون بالتالى فى صراع مع
واقعة ويرغب فى ممارسة حقه فى التصارع معه حتى يحقق السلام
بانتصاره عليه ؟ أم هل نحن ننتمى الى من يستطيع أن يجمع بين
قبول الواقع بما فى ذلك رفضه لذاته (أى صيرورته) فيحقق بذلك
مبدأ السلام والصراع معا ؟ ويكون تحديد موقفه هنا بأنه يستطيع
أن يقبل من الواقع مالا يستطيع أن يغيره ويغير فى الواقع
ما يستطيع أن يغيره وبهذا يكون قد تحرر فعلا من شهواته سواء
شهواته فى الابقاء على الواقع كما هو أو شهواته فى رفضه برمته
فيصبح بذلك تعبيرا عن الارادة العليا التى هى ارادة التغيير
والصيرورة ويكون قد تحرر فعلا من جاذبية الارض • فالوسط
الحقيقى هو ما يوازى بين الاطراف ويحتويها ولا يكون طرفا
ازائها والا فقد صفته كوسط •

والوسط الحقيقى يعتبر جوهر الخبرة الصوفية حيث تجتمع
الاضداد وينتفى الصراع بينهما ويحل السلام محله • فالوسط

ليس أحد أطراف الصراع حتى لو كان هذا الطرف هو الطرف المضاد للصراع أى المتصارع معه ولكنه يحوى الصراع بداخله فهو يجمع فى تمركزه تـوازى الاطـراف المتصـــارعة حتى بمـــا فى ذلك تصــــارعه معهــا ٠

فالرسول « صلعم » قد عاش فى الدنيا وفى الآخرة معا ولكنه لم يذهب الى آخرته على حســاب وجوده فى دنياه بل قام بدوره فيها كاملا بكل أبعاد الصراع الذى يقتضيه هذا الوجود ٠ فقد أشـبع احتياجاته الدنيوية الحسـية ولم يترهبن وقد ذهب الى السموات فى الاسراء والمعراج وعاد الى دنياه لقد ضرب لنا المثل بحياته فى قدرته على قبول الواقع ورفضه والوجود فى الدنيا والآخرة معا ٠

فهل نحن أيضا نستطيع أن نقبل واقعنا وآمالنا معا ؟ فتقبل الواقع ورفض الواقع معا ؟ أم هل نتمسك بطرف فنحكم على أنفسنا بالضرورة بالصراع وبالتالى بالزوال ؟ هل ندافع عن الواقع فقط أم ندافع عن الامال فقط أم نستطيع أن نجمع بين هذا وذاك ؟

- هل سنأخذ موقف اليمين فى رفضنا لليســار أم نأخذ موقف اليسار فى رفضنا لليمين أم نستطيع بصدق أن نحوى الطرفين فى تفاعل بناء فى اتجاه مسيرة موحده ؟

هموم الفلاح المصرى وهموم المهمومين بهمومه

الفلاح المصرى الصغير الذى يمثل قطاعا لا بأس به من قاعدة الشعب المصرى يعبر عن همومه على لسان أحدهم (فتحى حماده) فى اطار حوار أجراه مع مثقف (محرر الطليعة) ، والطليعة اذ تحاول نقل صورة من همومه وتعليق كتابها عليها الى قرائها فهى تساهم فى نوعية هذا القطاع من المثقفين الذين قد يقتصر كفاحهم من أجل العدالة الاجتماعية أو النهضة الاقتصادية السياسية على فهمهم المجرد لظاهره الظلم والفوارق بين القاعدة والقمة ، والذى يمثل الفلاح الصغير الطرف المظلوم فيها ، والذى ينادى كتاب وقراء الصحف والمجلات الاخرى ـ بمحاولة لفهم مشكلاته · فالى أى درجة نجحت الطليعة فى نقل صورة هموم الفلاح الصغير ؟ والى أى مدى كانت تعليقات الكاتب تمثل فهما حقيقيا لتلك الهموم ؟

من حيث نقل الصورة فان الطليعة اعتمدت على نقل الحوار الذى دار بين محررها والفلاح نقلا حرفيا ، فلم تلجأ الى وصف الظاهرة من وجهة نظر المحرر أو بكلماته ومفاهيمه بل اعتمدت على كلمات الفلاح كما قالها ، وذلك أملا فى الوصول الى درجة عالية من الموضوعية ، وهنا نتساءل عن امكانية ذلك فلو لجأنا الى علم الطبيعة الذى يمثل أكثر العلوم اقترابا من الموضوعية لوجدنا أن العلماء قد توصلوا أخيرا الى أن الموضوعية التامة شبه مستحيلة · فاننا حينما نسعى الى مشاهدة الجزئيات الصأيرة مثل الالكترونات

---

* تعليق على مقال فى الطليعة أبريل ١٩٧٦ « هموم فتحى حماده » ·

نجد أن عملية المشاهدة فى حد ذاتها ــ وهى التى تتطلب القاء موجة على الجزئية تنعكس فتعود لتعطى الصــــورة ــ تحدث تأثيرا على نفس الجزئية وطبيعتها ٠ وهناك ما يشير الى أن هذه الجزئيةتتصرف أحيانا كما لو كانت جزئية وأحيانا كما لو كانت موجة وانها تتأثر بعملية المشـــاهدة ٠ هذا يحدث فى علوم الطبيعــة فما بال الامر بالعلوم الانسانية ٠ لو عدنا بالامر الى نشأة التحليل النفسى فقد كان فرويد يأمل أن يكون المحلل موضوعيا ولا يدع رؤيته للاشياء تؤثر على حقيقة ما يظهره المريض ، أى ألا يســمح باســقاطاته أن تغير الصورة التى أمامه ٠ ولهذا طلب أن يكون موقف المحلل محايدا لدرجة كادت تقترب من البرود كما طلب أن يكون هو نفسه خاليا بقدر الامكان من العقد النفسية وذلك بواسطة أن يكون قد مر هو نفســه بعملية تحليل نفسى تحقق تصـــفية بقدر الامكان لصراعاته الذاتية ٠ الا انه سرعان ما اتضحت استحالة هذا الموقف فالحياد فى موقف ما قد يكون انحيــازا ولعل مثالا من الحيــاة العامة قد يوضــح ذلك حينما تكون هناك معــركة بين قوى وضــعيف فيكون الحياد هنا ليس الا سماحا للقوى بأن يهزم الضعيف ، أى انحيازا له وراء ستار الحياد ٠ وكذلك فى التحليل النفسى حيث يستخدم السكوت أو عدم التدخل : فظاهره أنه موقف حيادى بينما حقيقته انحياز فى اتجاه ما ٠ والامر الثانى الذى يؤكد اســتحالة الحيــاد هو أنه ليست هناك صورة ثابته للصحة النفسية فالمسألة نسبية ومرتبطة الى حد كبير بالمكان والزمان الذى يوجد فيه الفرد وعلى هذا فان المحلل لا يستطيع أن يكون كاملا أو موضوعيا فهو عضـــو دينامى فى بيئة متغيرة يتأثر بها ويؤثر عليها وبالتالى يستطيع أن يستثنى علاقته بالمريض من تلك البيئة ولا يستطيع أن يعزل قيمه

ومفاهيمه عن تلك العلاقة ، فالخيار عنده اذا ليس بين الحياد والانحياز ولكن بين انحياز يعيه وانحياز لا يعيه ·

من هذه الامثلة نستطيع أن نقول أن الصورة التى حاولت الطليعة نقلها لا يمكن أن تكون موضوعية تماما ولا مفر من انحياز الكاتب والمعلقين ولذلك يجدر بنا أن نبحث عن اتجاهات ذلك الانحياز وآثاره ·

فالحوار هنا كان قائما على السؤال والجواب لا على التداعى الطليق للفلاح ، فهو يقول فى حدود ما يسأل عنه بل لعله يسعى الى درجة ما ـ ربما من باب المجاملة أو حتى الخوف ـ لارضاء السائل واعطائه ما يريد · فالسائل (غالبا) يمثل أفنديا من الافندية الذين يمثلون بالنسبة لهذا الفلاح السلطة المستغلة له والمسيطرة عليه وان كانت فى الوقت ذاته تحمل طابع الحامية والمتكفلة به . وهو موقف نفسى يعبر عن علاقة الطفل بأبيه حينما تمر مرحلة ازدواجية المشاعر ، فهو يحبه من حيث هو يحميه ويرشده ويسانده ولكنه يكرهه لانه يمثل السلطان والتحكم والاحباط لرغباته · وعادة يحل الطفل هذا الصراع بين الرغبتين والعاطفتين بأن يدمجهما فى خدمة تكيفه مع الواقع فهو يستخدم حبه لابيه لكى يتشبه به ويخطئ خطاه فيتعلم منه ، ويستخدم كرهه له لكى يتنافس معه ويفوقه ويتخطاه · ولكن هذا الحل التوافقى قد لا يمثل النهاية السعيدة لكل ازدواجية فى المشاعر ، فقد يكون الحب فى بدائيته نوع من الاعتمادية التى تجعل الطفل يكتفى أن يكمل والده ما ينقصه بدلا من التشبه به ويكون الكره فى بدائيته رغبة فى التحطيم بدلا من المنافسة · وفى كلتا الحالتين فان الطفل يلجأ الى وسائل اخرى ليتجنب الوعى بهذه المشاعر الاعتمادية وما يشوبها من انفعالات

عنيفة قد تفتك به أو بغريمه · وهذا ما يفعله الفلاح الفقير ازاء السلطة ، فهو لا يملك أن يتحكم فى كيفية تسيير حياته وانما ينتظر الفرج أو العقاب من الخارج ويقبل أن من ينوب عنه لا ينوب عنه حقيقة انما هو أفندى من المنتمين الى السلطة · انهم يملكون أدوات الدعاية التى تسمح لهم بترشيح أنفسهم فى الانتخابات ويقدمون للفلاح الصغير فروض الانتماء والمحبة مرة كل موسم انتخابى فقط ، فهم فى الواقع لا يربطهم به أى انتماء حقيقى · انهم ممثلون له فقط بالاسم وهم لا يمثلون الا أنفسهم وسرعان ما ينتمون الى طبقة الافندية أصحاب السلطة والنفوذ التى سرعان ما تجلب لهم مزيدا من المال · وقد يحصل الفلاح الصغير على ميزة محدودة أو مؤقتة من جراء تنافس الساعين وراء السلطة الطالبين لصوته الانتخابى ولكن فى النهاية فان اللقمة الاكبر تبقى فى أفواههم ــ الغالب والمغلوب فى صراع السلطة على السواء ــ وليس فى فمه هو · ان الفلاح الصغير يعتمد على هؤلاء فهو لا يملك رفاهية ترشيح نفسه ويترك أمره لهم ولا يملك رقابة عليهم غير صوته مرة كل عدة أعوام · ومع هذا الاعتماد فهو أيضا يكرههم ويخافهم فهم الذين يملكون مفاتيح رزقه ويتحكمون فى قوته ·

ولعل تجاهل فتحى حماده لعالم هؤلاء الذى قد يبدى بجدارة كجهل بهذا العالم الذى يشمل المشاكل القومية والعالمية لهو أبلغ رد يستطيعه ازاء هؤلاء الافندية · وحين يجيئون اليه طالبين مساهمته فى حل مشاكلهم ــ كأن يزيد من انتاجه الزراعى أو يحد من النسل الذى يهدد بانفجار سكانى أخطر من انفجار القنبلة الذرية ، فانه يواجههم بسلاح لا يستطيعون مجابهته وهو هذا الجهل أو التجاهل

لامور دنياهم الذى يجعل من مساهمة الفلاح الصغير فيه أمرا غير ذى جدوى ، فكل ما يطلبــه منهم هو تخفيض الضرائب ونفقــات الزراعة والدراسة والعلاج ولا تهمه بطريقة مباشرة القضايا العامة وان كانت تمسه فى النهاية • فالحوار بتكوينه يبرز عنصر الجهل عند فتحى حماده على حساب التجاهل ويجعله يبدو قاصرا مقصورا فى رؤيته غير جدير بتحمل مسئولية قيادية ويحتاج الى وصــاية من نوع آخر أو أفندى آخر غير الافندية الذين ينــوبون عنه اليوم ومستغلونه • فالحوار مبنى على أسئلة المحرر التى تكاد تحدد نوعية الاجابات عند فتحى حماده ويجعل منطلق المعلومات المستنيرة هى معلومات المحرر التى يجهلها أو يتجاهلها الفلاح • وهذا ليس عيبا فى المحرر الذى لا يســتطيع ــ مهما حاول اســوة بعالم الطبيعة أو المحلل النفسى ــ أن يسلخ نفسه من ذاتيته وأن ينتقل بوجدانه مع الفلاح الذى يسأله ويشاركه حقيقته • وان كان هناك قصور فهو فى طريقة الحوار الذى يضع المحرر فى موقع المتفرج الســائل وهو وضع « خارجى » و « فوقى » بالنســبة للفلاح الذى يرى نفســه صغيرا مغلوبا عل أمره « منداس بالرجلين » (على حد تعبيره) •

واذا عدنا مرة أخرى الى مثال التحليل النفسى فسوف نجد

كيف انتقل فرويد من اجراء الحــوار بهــذه الطريقة ــ الســؤال والجواب ــ والتى ما زالت تمثل الطريقة الاساسية فى النمط الطبى الى ابتداع طريقة « التداعى الطليق » Free association[٦] التى يترك المريض أفكاره تتداعى بدون تدخل واعى أو معتمد من جانبه ويعبر عنها كما تخطر له • الا أنه كما أشرنا نجد أثر المشاهد أو المحلل النفسى هنا لا يمكن محوه تماما فســكوته فى حــد ذاته تعبير وانحياز ، ومن هنا نشأت ضرورة الاعتراف بوجود عالم

المحلل فى مواجهة عالم المريض وما يحدث بينهما من تفاعل ·
وازداد الاهتمام بما يعرف بالطرح المضاد Countertranscferene
فى التحليل النفسى وهو عبارة عن المواقف والمشاعر التى يشعرها
المحلل تجاه المريض (عادة استجابة لما يسقطه المريض عليه) ·
ووصل الاهتمام الى درجة المشاركة بين الجانبين ، وبالتالى تحرير
الطبيب من دوره والقناع الذى يتخفى وراءه ويبتعد بواسطته عن
ممارسة انسانيته مع المريض · وهو أمر يسهل حدوثه نسبيا فى
اطار الجماعة كما يحدث فى العلاج النفسى الجماعى ·

الا أن هذه النقلة ، وهى نقلة ثورية فى اتجاه تقريب الفوارق
بين القاعدة والقمة ، ليست ظاهرة معزولة يعيشها التحليل النفسى
انما هى تعبير عن نقله حضارية يمر بها عالمنا بالضرورد وتترك
آثارها على جميع آفاق المعرفة ، منها التحليل النفسى والتعليم
ومنها بالتالى طرق الحوار الاعلامى بما فى ذلك حوار الطليعة
مع فتحى حماده ·

واذا أخذنا مثالا آخر قبل الانتقال الى موضوعنا فلعل ذلك
يقرب هذا المفهوم ــ أى طبيعة النقلة الثورية ــ الى الاذهان · وذلك
المثال فى مجال التعليم وبالذات محو الامية لدى الفلاحين فى أمريكا
الجنوبية والتى أجراها بولو فرير P.ulo Freire حيث كان منطلقه لتعليم
هو محاولة المشاركة الحقيقية بدلا من القاء العلم من فوق ، فهو
وان كانت بدايته أن الفلاح أمى ويحتاج الى من يعلمه القراءة
والكتابة قد انتقل الى أن أمية الفلاح ليست مجرد سلبية ونقصان
فى العلم ولكنها وجه من عملة وجهها الآخر هو العلم ببيئته ومشاكله·

فالمعلم الذى يبدأ بتواضع التلميذ الذى يريد أن يتعلم من الفـــلاح كيفية حله لمشاكله ، يستطيع بواسطة تواضعه أن يأخذ المقـــابل بأن يجعل الفلاح يقبل دور التلميذ فيتعلم القراءة ، ويستطيع أن يرشد معلمه فى كيفية تعليمه اياها وربطها بمشاكله بدلا من تعلم القراءة كعملية مجردة أو كمظهر لخضوع الفلاح لعالم المثقف «الافندى».

واذا انتقلنا من هذا الى كيفية نقل صـورة عن هموم الفلاح لوجدنا أن هنك مساحة تغطى درجات متفاوتة من محـاولة الفهم لمشكلة الفلاح تبـدأ من أقصى اليمين (جزافا) حيث يملى المشـاهد تصـوره لهموم الفلاح دون أن يأخذ رأيه فى ذلك كأن يتصـور أن الفلاح ليست عنده مشكلة فى أكل الخبز وخاصة أنه يسـتطيع أن يأكل البسكوت بدلا منه ، وهو موقف يعبر عن التجاهل (أو الجهل) التام بمشاكل الآخر • فننتقل تدريجيا الى أنواع من الحوار يكون فى بعضها تصور مسبق من جانب السائل عن ماهية مشـكلة الآخر التى يريد مشاهدتها فهو يتصور (كما جاء فى بعض التعليقات على الحوار) أنه هو الذى يعرف « حقيقة » المشكلة وأسبابها وأن جهل فتحى حماده بتلك الحقيقة هـو نتيجة لعمليـة تزييف لوعيـه من جانب قادته أو أجهزة الاعلام أو غير ذلك من وسـائل التضليل • ان هذا التصور المسبق سـوف يؤثر لا محالة على طريقـة اجراء الحوار ونوعية الاسئلة التى توجه الى صـاحب المشـكلة وكذلك سوف يؤثر على ما نراه فى أقوال صاحب المشكلة وكيفية تحليلنا لمحتوياتها • وقد تكون كلها ، بدرجات متفاوته ، محاولات لاسقاط مشاكل المحررين والكتاب وليس فيها محاولة لمعرفة مشكلة الآخرون ومشاركته اياها • فهذا كاتب يأخذ جملة من حديث فتحى حماده فى

مدح عبد الناصر ليستدل بها على صحة موقفه ازاء الحوار الدائر حول تقييم عبد الناصر ، أو فى مدحه للسد العالى أيضا ردا على المغرضين الذين يحاولون الاقلال من قيمة هذا العمل المجيد ، بينما قد يستطيع كاتب آخر ان يستشهد بان حال فتحى حماده لم يتحسن منذ ١٩٥٢ حتى اليوم ويجد ان هذا الدليل على ان نقده لحكم جمال عبد الناصر فى محله ، بينما يستطيع ثالث ان يضيف ان حال الفلاح لم يتغير منذ عهد الفراعنة ورغم الثورات والاديان ، ولعل فى ذلك دليلا على ان انماط الثورات كلها متشابه ، بل قد يجد ان فى هذا دليلا على انه ليس هناك جدوى من الثورات وان الظلم باق لا محالة ولن ننجح الا فى تغيير شكله الخارجى .

وكلما ابتعدنا عن اقصى اليمين كلما كان تدخل العنصر الذاتى أقل وان كانت الذاتية لا تنتهى ، ولكن كل ما هناك انه تحدث عملية فصل بين ما هو ذاتى وما هو موضوعى بقدر الامكان . أى اننا سوف نرى مشكلة فتحى حماده كما هى ، أو بالاصح كما يراها ، فهى ليست مشكلة الا من حيث هى مشكلة شخص ما ، وهو فى هذه الحالة أساسا فتحى حماده من جانب والمحرر والكتاب والقراء من جانب آخر . وعملية الفصل تقتضى ان نكشف الحدود بين ما أراه مشكلتى وبين ما اعتقد انها مشكلة الآخر (أى فتحى حمادة) ، فاستطيع ان أقول اننى أرى من مصلحتى الدفاع عن عبد الناصر والسد العالى ولكن دون ان اعتقد ان دفاع فتحى حمادة (اذا كان يمكن اعتباره دفاعا) عن عبد الناصر والسد العالى يطابق دفاعى ، فكل موقف له دوافعه المختلفة وموقفى لا يعطينى المبرر لاقول اننى دونا عن غيرى المعبر عن حقيقة موقف الفلاح الصغير والمتبنى لقضاياه والا سوف أجد نفسى فى مأزق حينما أطبق هذا على موقفى

من قضايا (عالمية) أخرى يجعلها أو يتجاهلها الفلاح الصغير ·
فبواسطة فصل القوات هذا (بين ذاتى وذاته) استطيع أن اشاركه
بصدق اننى مثله صاحب مصالح وأدافع عن ذاتى ووجودى وانه
ليس فى موقفى أى وصاية عليه أو نبل وشهامة وبالتالى تعال منى
عليه · اننى بواسطة هذه النقلة ، وهى نقلة ثورية بمعنى انها لم
تكتف بمجرد تغيير فى الشكل الهرمى السلطوى أو مجرد تغيير
فى اشخاص السادة الافندية الاوصياء ، وانما بنيت على تغيير جذرى
فى وجود الشكل الهرمى والعلاقة السلطوية ، أو علاقة الوصاية
على أحسن الفروض ، فانتقلت الى نوع من المشاركة الندية بين
المشاهد وموضوع المشاهدة ، بين المحرر والفـــلاح وبين الكاتب
المعلق القارىء وصاحب المشكلة ·

ولكن كيف نستطيع ترجمة هذه النقلة لتظهر فى كيفية تصوير
المشكلة المطروحة ؟ لا شك ان محاولة الطليعة هى محاولة محمودة
فى سعيها للابتعاد عن ذاتية الكاتب · ولكن لاشك ايضا ان شكل
الحوار قد ساهم فى الحد من المحتوى · فالسائل يحدد المواضيع
ويسأل فيها والفلاح يجيب بقدر السؤال · أى اننا ، بالمقارنة مع
التحليل النفسى ، مازلنا فى مرحلة بدائية فى محاولة لفهم مشكلة
الآخر بمعنى انعدام وجود تداعى طليق من جانب الفلاح يسمح لــه
بالتعبير عن كل ما يجيش بصدره · وهو لا محالة قد اتخذ موقفا
من السائل لم يسمح عنه بوضوح · ولعله اعتبر السائل « افنديا »
آخر من هؤلاء « الأفندية » الحكام الامر الذى يحده بدافع المجاملة ،
من قدرته على التعبير ، وقد نحاول الاستدلال على ذلك بان نأخذ
بعض أقوال اصدقاء فتحى حماده (اذا استطعنا ان نقترب منهم
أكثر) عن أقواله فى لحظات تعبيره التلقائى الصادق عن نفسه :

هل ياترى سوف تطابق ما قاله للمحرر ؟ اذا اضفنا الى ذلك علمه ان حديثه لاى آخر لا يعتبر منتميا اليه ، فما الذى يجعله يجازف بالتعبير عن حقيقة رأيه فى القائمين بأمره ؟ فلو قال ما يريد ان يقوله عن العمدة أو كاتب الجمعية أو امين الاتحاد الاشتراكى فما الذى يمنع انتقامهم منه ؟ ان الكاتب يستطيع ان يهاجم من يشاء من هؤلاء فليس لهم سلطة عليه أو تحكم فيه ولكنه أى الفلاح يعيش وسطهم وسوف يبقى معهم ، فلماذا يجازف باستفزازهم بالهجـــوم عليهم وذلك بكشف طبيعة وحجم استغلالهم له • فالمحرر قد يســتطيع أن يشارك فتحى حماده رؤيته لحجم مشكلة لفترة زمنية محدودة ولكنه سوف يذهب الى عالمه بعيدا عنه ويحقق لجريدته السبق الصحفى ويترك الفلاح لعواقب أقواله • ولهذا فان ما جاء فى الحوار ليس بالضرورة معبرا عن حجم أو حقيقة مشــكلة فتحى حماده وذلك لانعدام المشاركة الندية الحقيقية بين المحرر وبين الفلاح صـــاحب الشأن • فهل ياترى لو كان المحرر فلاحا مثله يشاركه وجـــوده يوميا ، كيف يكون شكل الحديث ؟ فى الاغلب سوف يقتصر الحديث على المشاكل اليومية لكليهما الا لو كان الطرف الآخر يتمتع بسعة افق ودراية (وهو أمر يحدث أكثر مما نتصور فى الريف) يعطيه بعدا آخر لتوجيه الحوار أو ربما نستطيع ان نتصور اطارا آخر للحوار يكون فيه هذا الفلاح الثانى (الا وسع افقا) حلقة اتصال بين المحرر والفلاح الصغير مع اتجاه الى تغيير السؤال أو الاستجواب فى عدة اتجاهات بدلا من كونه بين محرر يسأل فلاح ويجيب ، أى ان يتحول الحوار الى مناقشة بدلا من سؤال وجواب • وقد تصل درجة المناقشة الى ان يكون كل طرف معبرا عن وجهة نظر وليس متفرجا أو سائلا أو معلما أو تلميذا ، أى يتحول الى حديث مشاركة

فعلية وندية وليس فيه أى شكل من اشكال الفوقية التحتية . ولعل الامر يزداد يسرا اذا ما أخذ الحديث الصحفى صورة جلسة جماعية يشترك فيها عدد من الفلاحين ويكون المقرر واحدا منهم يعطيهم بقدر ما يأخذ منهم ويطرح مشكلته بقدر ما يستمع الى مشكلاتهم . ولعل شكل الحديث يتطور الى مشـــاركة على مدار فترات زمنية أطول تستطيع أن تشمل نشاط متعدد من جانب الفلاح وترى ممارســته لمشاكله وهمومه أكثر من حديثه عن تلك المشاكل والهموم . ومع الافراط فى هذا الاتجاه (نستطيع أن نسميه اتجاها الى اليســـار جزافا) فقد ينتفى الحديث الصحفى تماما ونجد نفسنا قد اقتربنا من صورة الفنان الذى يرسم ذاته ولكنها ذات اتسعت حدودها وتجاوزها لذاتها حتى شملت ذوات أخرى فتنقل الينا صورة قريبة من حقيقة الذات الاخرى مع الحد الادنى من تأثير الذات المشاهدة مدعيـــة الموضوعية والتى تنقل الينا صورة مشوهة للآخـــر تحت عنوان الموضوعية أى اننا نقترب تدريجيا من بين ما تعتقد انه مشاهدة موضوعية ، ونوضح الجانب الذاتى وكذلك من ما نعتقد انه وصف ذاتى (مثل العمل الفنى) ونبين ما فيه من موضوعية . ولعل هذا يجد تجسيدا له فى بعض التطبيقات العلمية مثلما نجد فى مجال المسرحية النفسية أو السيكودراما حيث ان هناك جمع بين العمل الفنى والعمل العلمى كما نجد فيه جمع بين ما يبدو ذاتى وما يبدو موضوعى وفيها جمع بين عملية المشاهدة وعملية المشاركة .

من هذا المنطلق نستطيع ان نسلط ضوءا فى الاتجاه الآخر ، أى نجد المشاهد ــ وهو فى هذه الحالة الطليعية ــ وما تحتويه من محررين وكتاب وقراء . فبدلا من الحديث عن مشكلة الفلاح الصغير كمظهر من مظاهر الظلم والاستغلال الذى يوجد « هناك » فى مجال

موضوعى ، نشاهده نحن كما هو وبدون أى تحوير من ذواتنا ، فنستطيع ان نشاهد انفسنا فى نفس اللحظة التى نشاهد فيها مشكلة الفلاح الصغير ، وكذلك نشاهد انفسنا ونحن بصدد عملية مشاهدة مشكلة الفلاح الصغير ، أى أن نهتم مع اهتمامنا بهموم المهمومين بهموم فتتحى حماده ، الأمر الذى ييسر لنا عملية الفصل بين ما نفعله من أجل الفلاح الصغير وبين ما نفعله من أجل حل مشكلاتنا الذاتية ، والا سوف نجد انفسنا مجرد ادوات لهذه الدورة التاريخية الابدية التى تتكون من منقذين وأوصياء على الفلاح الصغير ، تنتهى معركتهم بان يصبحوا ممثلين فى لعبة كراسى موسيقية مع المستغلين الذين سبقوهم • فبعد ان يحققوا غرضهم من تبنى قضية الفلاح الصغير ويتربعون على كرسى الوصاية على مصيره فهم يصبحون مجرد وجه جديد للاستغلال وهو أمر يعرفه الفلاح الصغير فتحى حماده بحدسه • ان كل هؤلاء « الافندية » من « الاعداء » واذا ما تبنى أحدهم قضية فهو انما يفعل ذلك طالما تكون هذه ورقة رابحة يكتسح بها زميله الذى يتربع على كرسى الاستغلال ، وفتحى حماده يعرف ذلك ويعرف دوره فى اللعبة فهو يؤيد « أفنديا » ضد « أفندى » آخر أملا فى أن يحصل اثناء هذه المنافسة على قطعة أكبر من الخبز • وقد يتعاطف مع مصير الفلاح الصغير وهى تلعب نفس اللعبة بين المتنافسين عليهما بين « روسيا أفندى » و « امريكا أفندى » حتى يتربع هذا الاخير على كرسى الاستغلال فينتظر أفنديا آخر يتنافس عليه لعله « الصين أفندى » الذى سوف يمثل دور البطل المنقذ فى الحلقة القادمة • وفتحى حماده قد يبدو جاهلا بكل هذه الاعيب والمسرحيات ولكنه ايضا قد يكون متجاهلا لها ، فهو يعرف انه المغلوب على أمره وان دوره ومكانه

وسط « الافندية » ثانوى وانه اداة لصراعاتهم على السلطة وهـــو بتجاهله لهم الذى يبدو كأنه مجرد جهل يستلزم الوصـــاية ، انما يضع لهم أكبر « اسفين » فى العيبهم المتبادلة ·

ولعل هذا المدخل هو الذى يقربنا من هموم المهمومين بهموم فتحى حماده وهم نحن المثقفين المكافحين باقلامنا وكلامنـــا ونحن الجالسين على مكاتبنا وفى بيوتنا فى نفس الوقت الذى نشترك فيه بشكل أو آخر فى استغلال فتحى حماده ، فقد لا نكون اعضـــاء فى الجمعية التعاونية التى تنهب الفلاح الصغير ولا من رجال الادارة التى تشرف على تلك الجمعية أو رجال القانون الذين يعجـــزون عن ارساء العدل فى هذه الجمعية أو رجال الشرطة الذين يقفون مكتوفى الايدى أمام تلك السرقات الاشتراكية التعاونية أو من اللجـــان المركزية التى تهيمن وتشرف على العصـــابات المحترمة وتحميهـا بالقانون والدستور لا نكون اعضاء حاليين فى هذه الشبكة بل قد نكون مطرودين منها بعد ان كنا فيها فندافع عن الماضى المجيـــد وايام عبد الناصر العظيمة أو قد نكون محرومين من الدخول فى هـــذه الشبكة اصلا فنهاجمها نقمة وحقدا وحسدا حتى تستطيع هى ان تمصنا بداخلها فنصبح من الساكتين أو المدافعين عنها أو الداعين اليها ، أو تستطيع الشبكة ان تبعدنا وتشل فاعليتنا وتقطع السنتنا بالسجن تارة وبالحرمان من التعبير تارة أخرى وغير ذلك من صور العزل السياسى والاجتماعى · الا أننا طالما اتخذنا موقف الصمت فان ذلك يكون بمثابة الحياد المنحاز الذى يوافق على اســـتمرار الاستغلال بصورته الراهنة ·

فهمومنا نحن المهمومين بهموم فتحى حماده لمن يحلها التركيز على هموم فتحى حماده وحده ولكن لامفر من ان نرى مصدر همومنا ذاتيا والتساؤل اين الظالم والمظلوم بداخلى ؟ ومن الذى يسـعى للتحرر وكيف ؟هل انا انسان متكامل ليس فيه جانب ظالم وجانب مظلوم فى صراع بل تتناسق فيه كل الاجزاء فى خدمة كل متحد ؟ هل أمارس العدالة الاجتماعية والديمقراطية علاوة على هذه العدالة الداخلية فى نفسى وغير ذلك مما انادى به من أجل الفلاح الصغير ؟ هل أمارسه فى مجتمعى المباشر مع اسرتى وزملائى فى العمل ورؤسائى ومرؤوسى ؟

واذا طبقنا نظرة الذاتية فى المشاهدة على كاتب هذه المقالة لظهر تسـاؤل عن موضـوعية ما كتب : هل هو يقل من أهمية مشكلة الفلاح الصغير أو يلغيها ويدعو الى النظر الى داخل كل فرد ؟ هل يهمل المشاكل الاقتصادية والزراعية والفنية فى المجتمع ويدعو فقط الى اصلاح الناس داخليا ؟ أى هل يدعو مع عبد الناصر وآلاف غيره الى بناء الانسان اسوة بالمصنع ؟ واذا كان الظاهر مما كتب حتى الآن هنا هو هذا فان مبرر ذلك هو ان هذا يعتبر ردا على الجانب الآخر ومحاولة لاعادة النظر فيه أى بالنظر الى الداخل بالاضافة الى الخارج فالمشاكل الخارجية موجودة ولكنها تنتج عن مشـاكل داخلية مقابلة وتؤدى اليها وتتفاعل معها فى دينامية مسـتمرة ودائمة . ولا ينفى أى جانب منهما الجانب الآخر بل يثريه . فان ذاتية الكاتب هنا اذا هى فعلا دعوة لكل من يحدد نظرته الى الخارج فقط لان ينظر الى الداخل ايضا وهو موقف يقابل موقفه العلاجى فى حالات الامراض النفسية حيث يعتقد ان المرض موجود بداخـل المريض فيدعوه بالمقابل الى النظر الى الخـارج ومحاولة حـل

مشاكله هنـاك أيضـا بدلا من الاستحناء الذهنى والوجـدانى الـذى يجعله يعتقد ان مصدر المه وسعادته هو فى داخله فقط فى صورة مرض أو عاهة جسيمة كانت أو نفسية · فهى دعوة للمريض أن يحول نظره الى الخارج والسياسى الى الداخل ·

ولعل مثال آخر مما جاء فى كلام فتحى حماده يلقى ضـوءا على ذلك فان فتحى حماده ازاء شـعوره بالشـلل التام أمام « الافندية » والطليعة يكتفى بالتعبير اللفظى العاقل الهادىء ولايعبر عن موقفه الكامل من « الافندية » الممثلين فى محرر الطليعة رغم انه يبوح له بأكثر مما يستطيع ان يبوح به أمام أى مسئول آخر · انه يعطيه الكلمات الموزونة فقط التى يعتقد ان محرر الطليعة يريد أن يسمعها ولكنه يسلخ هذه الكلمات من محتواها العاطفى وما قـد يصاحبها من ثورة غاضبة أو احساس بالضعف والمهانة ازاء قوى الظلم والاستغلال الذى يشعر انه ضحية لها فما الذى يحدث لهذه الطاقة المهولة من الانفعالات ؟ انها فى الاغلب تنتقل من عند فتحى حمادة الى من يشعر انه اضعف منه أو يستطيع ان يفرغ فيه هذه الشحنة دون انتقام ولعله أحد أفراد أسرته وقد يبدأ بالمزوجة ولكنها فى الاغلب لن تستطيع الثورة بل تستمر فى العمل المضنى لمساعدته على تخفيف عبء الظلم عليهما أو قد ترضخ وتشكو فى صـورة المرض الجسمى أو النفسى ، وقد يأخذ هذا الدور ـ أى دور الثائر الراضخ ـ عضو آخر من أفراد الاسرة ـ الابن ـ الذى يجد مجالا أيسر للتعبـير عن شكواه فى صـورة المرض النفسى أو الجسمى فهو طالب متفرغ للدراسة (وهى دراسة لا تمت لحقيقة مشـاغله أو رغباته بشىء وقد تكون مجرد رمز آخر للسلطة الذى يرفضها) وغير منهمك فى معركة الحياة الا من حيث أنه يمثل المظلوم من أكثر

من جهة بانتمائه الى أبيه مظلوم اجتمعيا واقتصاديا ولكنه بصفته ابنـــا لابيـه والطرف الاضعف فى العلاقة فهو المنقـــذ الوحيـد الذى يستطيع فتحى حمادة أن يمارس عليه أى نوع من السـيطرة والتحكم • فبين هذه القيود وتلك فهو يرضخ ويستسلم فى صورة المـــرض الذى يكون تعبـــيرا عن الرفض أسوة بجهـــل فتحى حمـــادة كتعبير عن التجاهل • ويأخذه أبيـــه الى الطبيب لـكى يعالج الداء هنـــاك داخل شخص ابنه (أو الافضل داخل جسـده لكى يبعد عن نفسه أو عن المجتمع أى مســئولية تجاه حـــدوث « المرض ») وهو يدفع للطبيب أجـــرا فى مقابل أن يقبل الطبيب لعب هـــذا الدور وهو نوع من المشاركة فى مؤامرة نفسية خفية للبعـــد عن جوهر المشاكل وشمولها وارتباط ما هو بالداخـــل بما هو فى الخارج بل ما هو فى الجسد وما هو فى المجتمع • وويل للطبيب اذا ما أعاد الكرة الى أصحاب الشأن وأشـار الى موطن الداء فى المجتمع والبيئة بقـــدر ما هـــو فى المريض فالمؤامرة تشمل الا نثـــور ونحن ضعاف مشلولون فهذه المســائل ليست من اختصاصنا ولكنها من اختصـــاص « الريس » ســـواء كان مرحوما أو حيا ، وحلا لمشكلة ازدواجية المشاعر فلعلنا نستطيع أن نوزع الادوار بحيث نسقط الحب على الزعيم المنقذ أو المهدى المنتظر ونسقط الشـــر على أعداء الشعب أو مراكز القوى أو غير ذلك • وحقيقة الامر أننا نسقط ما بداخلنا وانا مسئولين عما يحدث لنا وأن الخير والشر بداخلنا وأن المنقذ الوحيد هو نحن وأن الخلاص هو الآن فى اعلان ثورتنا على سلبيتنا واحساسنا بالضعف وفى الكف عن لوم الآخـــرين أو انتظار الانقـــاذ من الآخرين أيضا •

فمن منـــا يستطيع أن يبـــدأ ثورته فورا وحيث هــو ـ منـــا والآن ـ فكيف عن تصـوره لوجود المشاكل خارجه فقط ؟ من منـــا يستطيع أن يرى مشاكل الآخـــرين وهو يعى دوره فيها فيفرق بين ما يقدمه ليحل مشاكله الذاتية ؟ ومن منا يســـتطيع أن يواجه همومه بنفســـه دون أن يتناساها فى همـــوم فتحى حمادة ويختبىء وراءها ؟ لعـــله يعمـــل ويحيا بحب وبهجـــة ويخلو من الحسد والياس والحقـــد ، فالحقد يدمر صاحبه أكثر مما يدمر غريمه والحب يبنى للطرفين ويضفى على العمـــل طاقة وبهجة واستمرارا لعلها الثورة « من اجل » « ليست الثورة « ضد » ولعلهـا جمـاع الاطـــروحة الذى لابد منه بين أطـروحة الظلم وأطروحتها المضادة من كره للظلم فبعد أن :

كنت فى صـــمتك مرغم ·· كنت فى صـــبرك مكره ··
« فتكلم وتالم وتعـــلم كيف تكره » ·

نستطيع بواسطة العمـــل المخلص ان نغـير واقعنا بالحب ونثور دون حقد ·

كلمة للنـــاشر

- من الصعب على أى دار للنشر أن تضع دستورا يحدد أهدافها ومن السهل أن يكون هذا الدستور فى هيئة عبارات انشائية تتكلم عن حرية الفكر والتعبير وكلمات كبيرة وضخمة ٠٠ ولكن الصعوبة فى ممارسة هذه الشعارات فكرنا كثيرا فى أن يكون شعارنا « انى أبغض رأيك ولكنى على أستعداد أن أدفع حياتى فى سبيل أن تعبر عن رأيك » ٠ ولكنا فضلنا أن نبدأ بالممارسة ونترك للقارىء الفرصة ليكون وجهـــة نظره من خلال ما ننشره فعلا وليس من خلال ما نقوله فليس كل ما ننشره نوافق عليه ٠ كوجهة نظر ٠٠ ولكن قد نرى أنه جدير بأن ينشر ووجهة نظر تستحق النشر بصرف النظر عن موافقتنا عليها أم عدم الموافقة أو حتى رفضها ٠

- وأمام معظم الاعمال التى نشرت والتى ستنشر باذن الله ـ ترددنا كثيرا ٠٠ ولكننا وجدنا أن ممارسة حق الآخرين قبل حقنا شىء هام فى محاولة أرساء تقاليد جديدة للنشر فى مصر ـ فى هذه الايام ـ والوقوف أمام حيرة الكثير من الكتاب حتى مع دور النشر ٠

- دار حوار طويل بينى وبين دكتور محمد شعلان حول الكثير من الافكار والآراء فى هذا الكتاب وأختلفنا أكثر مما التقينا ٠

ورفضت أن ألعب دور الرقيب فى النشر فهو شىء صعب على النفس ، وضد ما نؤمن به ، ولذلك رأينا أن ينشر الكتاب كما هو ، وأن تتاح مناقشة أفكار الكتاب لكل من يريد سواء فى كتب فى نفس السلسلة أو فى مجلـــــة « الفكر المعاصر » التى تفضلت مشكورة ورحبت بنشر أى وجهة نظر حول كتب هذه السلسلة أو أى كتب نصدرها ٠

● فأليك أيها القارىء كل ما ننشر فأنت الحكم ٠ وأنت على حق دائمـــا ٠

النـــاشر

هذا الكتـــاب

« وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون »

يتهم دائما كل من ينادى بالتغيير **« بالجنون »** وقد يبدو هذا الاتهام رحيما ، حيث يدعون للانتقام او العقاب ، ولكن باطنه قاسيا اذ هو **يلغى صاحب الرأى الآخر** ، ويضعه فى مرتبة ادنى من ان يستحق **المناقشة او المعارضة** .

وما يحدث فى المجتمع ينعكس على الاسرة بل وداخل كيان الفرد ذاته . فاذا « شذ » احد الابناء نتيجة خبراته التى تكونت من امكانياته الجسدية الموروثة وتنشئته الاسرية ، اعتبرته اسرته « مجنونا » .

ان الطبيب النفسى الذى يلجأ اليه الفرد والاسرة احيانا ليحكم بين النزعتين المتعارضتين كثيرا ما يجد ان هـــذه النزعة المخالفة ما هى الا تعبيرا عن رأى آخر . ونزعة للتعبير ولا يستطيع ان ينزلق بدوره فى معركة متعصبة ضد ذلك « المجنون » .

يعبر المؤلف عن موقفه **كمواطن وكطبيب نفسى** ازاء بعض القضايا السياسية التى شغلت المواطن المصرى فى الآونة الاخيرة : ـــ

كلنا جمال بذمة او بدونها . نظرة موضوعية بعـــد حموة الدفاع والهجوم على عبد الناصر ، همو
وهموم المهمومين بهمومه . اليمين واليســ
الموضوعات السياسية وكذلك **دفاع عن الجنو**
والخروج من الجاذبية الارضية والعودة اليه
ان المؤلف يدعو الى خروج الطبيب من ع
ليساهم فى حل مشاكله ليس بصفته الفردي
بصفته المهنية ايضا .



٦٠ شارع القصر العينى ـ أمام روز اليوسف ـ القاهرة
تليفون : ٢٧٥٦٦ ـ ٢٧٤٨٢